جامعة الملك عبد العزيز
قسم الدراسات العليا
كلية الشريعة بمكة المكرمة

الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى

رسالة مقدّمة إلى قسم الدراسات العليا الشرعية
لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد
محمد ربيع هادي المدخلي

وإشراف
فضيلة الشيخ كمال محمد هاشم نجا



١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمــة شكر وتقديــر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مـن لا نبي بعده وعلى آله وصحبه .

وبعـــــــد :

يسرني أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لجامعة الملك عبد العزيز والقائمين عليها عرفانا لهم بالجميل حيث هيئوا لنا فرصة الالتحاق بقسم الدراسات العليـــــا وسهلوا طريق العلم لأبنائهم الطلاب .

كمـا أشكر الجامعة الاسلاميــة بالمدينة المنورة التي شملتني برعايتها منذ أن كنت طالبا بها في كلية الدعوة ، ولازالت تمدني بالدعم المعنوي والمادي في سبيـــل اتمام دراستي العليا التي أسـأل الله تعالى أن يوفقني لاتمـامها .

كمـا أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ كمال محمد هاشم نجا الذي قام بالاشراف على الرسالة ولم يأل جهدا في توجيهي وارشادي ومنحني كثيرا من وقته الثمين حيــــث لم يقتصر لقائي به على ساعات الاشراف المعتمدة بل كنت التقي به في داره فأجد منــه كل ترحيب وسعة صدر وقد اعجبت بسعة علمه وصبره على الدرس والبحث بحيث لا يعـــرف الملل والسأم الى قلبه سبيلا .

وانني اذ أشكره على جهوده أدعو الله أن يجزيه عني خير الجزاء .

وأيضا فانني أرفع أكف الضراعة الى الله تعالى أن يتغمد برحمته الواسعة فضيلة الدكتور محمد خليل هراس الذي كان مشرفا على الرسالة قبيل وفاته ، وكان له الفضل الأول

فى توجيهى للبحث فى هذا الموضوع ٠

كما أقدم خالص الشكر والتقدير لكل من أسهم بجهد فى هذا البحث من نصح أوتوجيه او اعارة كتاب ٠

وأخص بالذكر والشكر والدى العزيز الشيخ ربيع هادى الذى له الفضل علىّ فى جميع مراحل دراستى ، وقد استفدت كثيرا من توجيهاته كما استفدت من مكتبته القيمة التى وضعها تحت تصرفى ٠

جزى الله الجميع خير الجزاء وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

محتويـــــات الرسالــــة

الموضـــــوع	الصفحـــــة
شكر وتقدير	أ ـ ب
محتويات الرسالة	جـ ـ ز
المقدمة	١ ـ ٥
الباب الأول	
تعريفـــــــــــات	٦ ـ ٢٢
الفصل الأول ـ تعريف الحكمة	٧
معنى اسم الله " الحكيم "	١٠
تسمية القرآن بالحكيم	١١
الفصل الثاني ـ التعليل	١٣
تعريف العلة	١٣
تعريف العلة لغة	١٣
تعريف العلة عند الأشاعرة	١٣
التلازم بين العلة والمعلول عند الأشاعرة تلازم عادى لا عقلى)	١٤
تعريف العلة عند الفلاسفة	١٤
أقسامها	١٥
الفرق بين العلة والحكمة	١٧
تعريف الغرض لغة واصطلاحا	٢٠
آراء الفرق فى تعليل أفعال الله	٢٣
تمهيد فى ذكر جملة آراء الناس فى تعليل أفعال الله	٢٤
البـــــاب الثانـــــى	
المثبتون للحكمة والتعليــــــــل	٢٦ ـ ٤٨
الفصل الأول ـ موقف السلف	٢٧ ـ ٤١
تحديد المقصود بالسلف	٢٧
الحكمة عند السلف	٢٩
على من تعود الحكمة عند السلف	٣٢

الموضـــــوع	الصفحـة

الموضـــــــوع	الصفحـة

مقدمـــــــــــة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسليـن .
محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فقد يسّـر الله لي بفضله وكرمه الالتحاق بقسم الدراسات العليا في كليـة الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة ، ولما كان من نظام هذا القسـم أن يقدّم الطالب بحثا علميا في مجال تخصصه بعد نجاحه في الدراسة المنهجيـة لينال بهذا البحث درجة التخصص " الماجستير " .

ونظرا لأنّ تخصصي في علم العقيدة الاسلامية الذي هو أشرف العلوم لأنّ موضوعه هو " الله سبحانه من حيث وجوده وما يجب أن يثبت له من الصفات ، وما ينفي عنه وما يجوز في حقه تعالى والرسل من حيث اثبات رسالتهم وما يجب فـي حقهم وما يستحيل وما يجوز ، واليوم الآخر وما يكون فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب .

وقد أخذت أفكر في موضوع مناسب أتناوله بالدراسة فوقع اختياري بعد اجالة الفكر وامعان النظر على موضوع :

" الحكمة والتعليل في أفعال الله "

وكان اختياري لهذا الموضوع لسببين :

أولا : أن حكمة الله تعالى التي تتجلّى في خلق هذا الكون على نظام محكم في غاية الدقة والاتقان من أقوى البراهين على وجود اله خالق حكيم عليم ، بـل فيها أقوى ردّ على الملحدين المنكرين لوجود الله . ولا شك أن دعوة الالحاد في هذا العصر قد زعزعت اليقين لدى بعض أبناء العالم الاسلامي الذيـن

تثقفوا بثقافة بعيدة عن روح الاسلام وتعاليمه • واذا فما هو ضرورى أمام تيارات الالحاد أن نقف على الحكم الجليلة فى مخلوقات الله وفى أحكامه وأوامره ، لانه كلما ازداد المرء علما بالحكمة ازداد يقينا بوجود الخالق الحكيم ، وكان ايمانه مبنيّا على أساس متين لاتزعزعه الشبه ولا تنال منه تيارات الشك والالحاد •

وهذه هى طريقة القرآن فى دعوته الناس الى الايمان اذ يدعوهم للتأمل فى هذا الكون والتفكر فى عجائبه ليستدلوا به على خالقه كما فى قوله تعالى : " قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (١) • وقوله تعالى : " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت • والى السماء كيف رفعت • والى الجبال كيف نصبت • والى الأرض كيف سطحت " (٢) الى غير ذلك من الآيات التى تدعو الناس الى التفكر فى صنع هذا الكون الذى يدل على قدرة خالقه ، وعلمه ، وحكمته ووحدانيته •

ثانيا : والأمر الثانى الذى حدا بى للبحث فى موضوع الحكمة والتعليل هو الخلاف بين علماء الكلام فى مسألة تعليل أفعال الله تعالى بالحكم والغايات حيث يرى بعضهم ذلك ، وبعضهم يرى أن أفعال الله تعالى لا تعلل بالحكم والغايات وانما يفعل الله تعالى بمحض المشيئة والارادة دون أن يكون فعله لحكمة أو غاية •

فعجبت من هذا الخلاف حول حكمة الله وعزمت على دراسة هذا الموضوع من جميع جوانبه ، والاطلاع على آراء الفرق فى الحكمة والتعليل ، وجمع ما تفرّق من أقوالهم وأدلتهم والموازنة بين تلك الأدلة وترجيح ما يظهر لى أنه الحق والصواب •

---

(١) سورة يونس آية ١٠١ (٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ ـ ٢٠

وبعد أن وافق المسؤولون على هذا الموضوع بدأت بقراءة كتب علماء العقيدة التى تعرضت لهذا الموضوع لتكوين فكرة كاملة عن حقيقة موقف كل فرقة ٠ وقد كشف لى البحث عن أن مبحث الحسن والقبح العقليين له علاقة قوية بموضوع الحكمة والتعليل اذ أن من أثبت الحسن والقبح العقليين قال بتعليل أفعاله تعالى ومن نفى الحسن والقبح العقليين نفى تعليل أفعاله تعالى مما جعلنى أتناوله بالدراسة ضمن موضوع الرسالة ٠

هذا وقد رتّبت البحث على مقدمة وستة أبواب وخاتمة ٠

أما المقدمة : فقد بينت فيها أهمية هذا الموضوع وسبب اختياري له ، وأوضحت فيها الخطة التى أسير عليها فى كتابة الرسالة ٠

وأما الأبواب :

فالباب الأوّل عبارة عن تعريفات للحكمة والتعليل ويشتمل على فصلين :

الفصل الأوّل : فى تعريف الحكمة لغة واصطلاحا وبيان معنى اسم الله " الحكيم "٠

والفصل الثانى : فى تعريف العلة لغة واصطلاحا وبيان أقسامها ، وأن العلة الغائية هى مقصودنا بالبحث ، وفيه أيضا الفرق بين العلة والحكمة ، كما بينت فيه معنى " الغرض " لغة واصطلاحا ٠

أما الباب الثانى : فكان فى بيان موقف الفرق المثبتين للتعليل ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأوّل : موقف السلف من الحكمة والتعليل ٠

الفصل الثانى : موقف المعتزلة من الحكمة والتعليل ٠

الفصـــل الثالث : موقف الماتريدية من الحكمة والتعليل •

وأما الباب الثالث : فقد تعرضت فيه لنفاة التعليل • وهذا الباب يشتمل على فصليـــن :

الفصـــل الأول : موقف الفلاسفة من التعليل •

الفصل الثانـــي : موقف الأشاعرة من التعليل •

وأما الباب الرابع : فقد تناولت فيه مبحث التحسين والتقبيح العقليين وهو يشتمل على بيان علاقة هذا المبحث بموضوع الحكمة والتعليل كما يشتمل علـى خمسة فصول :

الفصـــل الأول : في بيان معاني الحســـن والقبـح وتحرير محل النزاع بيـــن المعتزلة والأشاعرة •

الفصل الثاني : تحديد مفهوم الحسن والقبـح لدى السلف •

الفصل الثالث : رأي الماتريدية في الحســن والقبـح •

الفصـــل الرابـــع أدلة مثبتي الحسن والقبـح العقليين وأدلة نفاتهما والــرد على أدلة النفاة •

الفصل الخامس : في مسألة الوجوب على الله التي بناها المعتزلة على الحســـن والقبـح العقليين ومناقشتهم في الأمور التي أوجبوها عليـــه تعالى •

وأما الباب الخامس : فقد عقدته لذكر بعض مظاهر حكمة الله تعالى ويشتمل على أربعة فصـــول :

الفصل الأول : مظاهر الحكمة في الكون .

الفصل الثاني : مظاهر الحكمة في خلق الانسان .

الفصل الثالث : مظاهر الحكمة في التشريع .

الفصل الرابع : ظاهرة السببية ودلالتها على الحكمة .

وأما الباب السادس : فقد خصصته للرد على شبه لمنكري الحكمة ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : في الخير والشر وبيان المقصود بهما ، وأن الشر الموجود نسبي اضافي ، وأن الشر لا ينسب الى الله تعالى .

الفصل الثاني : في بيان الحكمة في خلق ابليس وخلق الآلام .

أما الخاتمة : فقد ذكرت فيها النتائج التي توصلت اليها في هذا البحث .

وقد بذلت غاية جهدي في هذه الدراسة نظرا لدقة الموضوع وقلة الكتابة حوله حيث لم أجد في كتب الكلام العناية الكافية بموضوع الحكمة والتعليل ، اذ لا يوجد فيها الا عبارات يسيرة واشارات خاطفة لا تفي الموضوع حقه من التفصيل والتوضيح .

وأرجو أن تكون هذه الدراسة قد استوعبت موضوع " الحكمة والتعليل " من جميع جوانبه ، وجمعت ما تشتت من مسائله وفصلت ما أجمل منه في كتب العقائد .

والله أسأل أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه ، وأن يعصمنا من الزلل انه على كل شيء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

البـــــــاب الاول
تعريفـــــات

وفيه فصـــلان :

الفصل الاول : تعريف الحكمة لغة واصطلاحا ومعنى اسم الله الحكيم

الفصل الثانـى : تعريف الملة لغة واصطلاحا وأقسامها

الفصل الأول

الحكمة

أولا : تعريفها فى اللغة :

١) جاء فى القاموس : أن الحكمة تستعمل لعدة معان ، فتستعمل بمعنى العدل ، والعلم ،والنبوة ، والقرآن ،والانجيل " وأحكمه أتقنه فاستحكم ومنعه من الفساد " (١) .

٢) وفى لسان العرب : " الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الاشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم" (٢) .

٣) وفى المفردات للراغب الأصفهانى :

" الحكمة اصابة الحق بالعلم والعقل " (٣) .

٤) وقال القرطبى : " الحكيم المانع من الفساد ، ومنه سمّيت حكمة اللجام، لانها تمنع من الجرى والذهاب فى غير قصد ، والسورة المحكمة ،الممنوعة من التغيير وكل التبديل ، وأن يلحق بها مايخرج عنها ويزاد عليها ما ليس منها .

والحكمة من هذا ، لانها تمنع صاحبها من الجهل . ويقال : أحكم الشيء اذا أتقنه ، ومنعه من الخروج عما يريد فهو محكم وحكيم على التكثير " . (٤)

---

(١) الفيروز آبادى ، القاموس المحيط ج ٤ باب الميم فصل الحاء
(٢) ابن منظور ، لسان العرب ج ١٥ حرف الميم فصل الحاء
(٣) الراغب الأصفهانى ، المفردات فى غريب القرآن ص ١٨١
(٤) القرطبى ،الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٢٨٨ باختصار

٥) وقال ابن الاثيـــر :

" الحكم والحكيم هملبمعنى الحاكم ،وهوالقاضى ، والحكيم فعيل بمعنى فاعل .

أو هو الذى يحكم الأشياء ويتقنها ،فهو فعيل بمعنى مفعل ،وقيـــل الحكيم ذو الحكمة . (١)

ومما تقدم يتبين : أن الحكمة يلاحظ فيهامعنـى المنع ، ومن هنـــا استعملت فى عدة معان تتضمن معنى المنع .

فالعدل يمنع صاحبه من الوقوع فى الظلم .

والحلم يمنع صاحبه من الوقوع فى الغضب .

ومثل ذلك النبوة ، والقرآن ،والانجيل . فالنبى انما بعث لمنع من بعث اليهـم من عبادة غير الله ، ومن التردّى فى الشرور والآثام .

والقرآن والانجيل أنزلهما الله يتضمنان ما يمنع الناس من الوقوع فى الشرك وكل قبيـــح .

وتفسير من فسّر الحكمة بالمعرفة مبنىّ على أن المعرفة الصحيحة فيهـــا معنى المنع ، والتحديد ،والفصل بين الأشياء .

وكذلك الاتقان فيه منع للشىء المتقن من تطرق الخلل والفساد اليه .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى هذا المعنى :

" الاحكام هو الفصل والتمييز الذى به يتحقق الشىء ويحصل اتقانه ،ولهذا أدخل فيه معنى المنع كما دخل فى الحدّ بالمنع جزء معناه لا جميع معناه " . (٢)

---

(١) ابن الاثير ، النهاية فى غريب الحديث ج ١ ص ٤١٨

(٢) ابن تيمية : مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ ص ٧

فتفسير الاحكام بالاتقان تفسير باللازم ،وتفسيره بالمنع لما يتضمنه الاحكام من معنى المنع .

كما يلاحظ مما تقدّم أن " الحكيم " مأخوذ من الاحكام بمعنى الاتقان ، فعيل بمعنى مفعل ، وصرف عن مفعل الى فعيل ليفيد المبالغة والتكثير ، كما صرف مكرم الى كريم ،ومؤلم الى أليم .

هذا وقد ترد الحكمة في القرآن الكريم مرادا بهامعاني أخرى غير ما تقدم . يقول ابن القيم رحمه الله في بيان معاني الحكمة الواردة في القرآن

" الحكمة في كتاب الله نوعان : مفردة ،ومقترنة بالكتاب . فالمفردة فسرت بالنبوة ،وفسرت بعلم القرآن" . قال ابن عباس : هي علم القرآن . وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهي السنة كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة " . (١)

ومثال ورود ها مفردة قوله تعالى " ولقد آتينا لقمان الحكمة " (٢) .

ومثال ورود ها مقرونة بالكتاب قوله تعالى " ويعلّمه الكتاب والحكمة " (٣) .

ثانيا : تعريف الحكمة في الاصطلاح :

أما تعريف الحكمة عند علماء الكلام :

١) فنجد أن الغزالي يقول في تعريفها :

" أما الحكمة فتطلق على معنيين :

---

(١) ابن القيم : التفسير القيم ص٢٢٦ ، ٢٢٧ باختصار

(٢) سورة لقمان آية ١٢

(٣) سورة آل عمران آية ٤٨

أحدهما : الاحاطة المجردة بنظم الأمور ومعانيها الدقيقة والجليلة ، والحكم عليها بأنها كيف ينبغى أن تكون حتى تتم منها الغاية المطلوبة بها .

والثانى : أن تضاف اليه القدرة على ايجاد الترتيب والنظام واتقانه واحكامه ، فيقال : حكيم من الحكمة وهو نوع من العلم .

ويقال حكيم من الاحكام وهو نوع من الفعل " (١) .

٢) ويقول الامام محمد عبده فى بيان معنى الحكمة :

" حكمة كل عمل مايترتب عليه ، مما يحفظ نظاما أو يدفع فسادا خاصا كان أو عاما ، لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا . ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة وبداهة العقل " . (٢)

وبالمقارنة بين تعريف كل من الغزالى والشيخ محمد عبده للحكمة :

نجد أن الغزالى يفسر الحكمة بالعلم أو بالعلم والاتقان للشىء حتى تتحقق الغاية المطلوبة منه ، فلا يجعلها نفس الغاية ، وانما يجعل الغاية نتيجة لها .

بينما الشيخ محمد عبده يفسرها بنفس الغاية الحميدة التى يقرها العقل وتدفع عن الفاعل العبث واللعب .

ثالثا : معنى اسم الله " الحكيم " :

من أسمائه تعالى " الحكيم " وقد عرفنا أن " حكيم " مأخوذ من الاحكام

---

(١) الغزالى ، أبو حامد : الاقتصاد فى الاعتقاد طبع دار الكتب ص ١٧١

(٢) الشيخ محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ٥٠

بمعنى الاتقان •

وقال أبوبكر البيهقى فى كتاب الأسماء والصفات فى معنى اسم الله الحكيم :

" قال الحليمى (١) فى معنى الحكيم : الذى لا يقول ولا يفعل الا الصواب ، وانما ينبغى أن يوصف بذلك ، لأن أفعاله سديدة ، وصنعه متقن ، ولا يظهر الفعل المتقن السديد الا من حكيم ، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار الا من حى عالم قدير •

قال أبوسليمان : الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء صرف عن مفعل الى فعيل ، ومعنى الاحكام لخلق الأشياء ، انما ينصرف الى اتقان التدبير فيها وحسن التقدير لها ، اذ ليس كل الخليقة موصوفا بوثاق البنية وشدة الأسر كالبقة والنملة ، وما أشبههما من ضعاف الخلق •

الا أن التدبير فيهما ، والدلالة بهما على وجود الصانع واثباته ليس بدون الدلالة عليه بخلق السماء والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة " (٢) •

وقد ورد ذكر هذا الاسم فى القرآن فى أكثر من تسعين موضعا ، والمسلمون مجمعون على أنه تعالى حكيم ، وله الحكمة البالغة •

الا أن هناك خلافا فى مفهوم هذه الحكمة على ما سيتضح عند الكلام فى آراء الفرق فى ذلك • ومنشأ الخلاف بينهم •

رابعا : تسمية القرآن بالحكيم :

الحكيم اسم لله تعالى على الحقيقة •

---

(١) الحليمى : أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمى

(٢) أبوبكر احمد بن الحسين البيهقى ، كتاب الأسماء والصفات ص٢٢

أما وصف القرآن بالحكيم كما فى قوله تعالى : " ألر • تلك آيات الكتاب الحكيم" (١) وقوله : " يس والقرآن الحكيم " (٢) • فقد وصف بذلك لانه كلام الحكيم ، فهو محكم متقن • قال الالوسى فى روح المعانى عند تفسير الاية الانفة : " الحكيم ذو حكمة على أنه صيغة نسبة كلابن وتامر أى متضمن اياها (أى الحكمة) أو الناطق بالحكمة كالحىّ على أن يكون من الاستعارة المكنية (٣) أو المتصف بالحكمة على أن الاسناد مجازى ، وحقيقة الاسناد الى الله تعالى المتكلم به" (٤)

---

(١) سورة يونس آية ١

(٢) سورة يس آية ١ ، ٢

(٣) الاستعارة المكنية : حذف المشبه به وذكر شىء من لوازمه

(٤) الالوسى ، روح المعاني ج ٢٢ ص ٢١١

الفصـــل الثانـــــى

التعليــــــــل

التعليل مصدر الفعل (علّل) ، ولكى يفهم معنى التعليل لابد من بيان معنـى العلّـة .

تعريـف العلّـة :

أولا : تعريفها فى اللغة :

تستعمل العلة فى عدة معان .

فهى تستعمل بمعنى المرض ، ومنه سمّى المريض عليلا . وتأتى بمعنـى السبب : يقال هذا علة هذا أى سببه .(١)

والعلة فى اصطلاح المتكلمين مأخوذة من المعنى الثانى لأنّ العلة سبب فى وجود المعلول .

ثانيا : العلة فى اصطلاح المتكلمين والفلاسفة .

لما كان تحديد معنى العلة فى اصطلاح علماء الكلام يختلف تبعـا لاختلافهم فى القول باثبات التعليل ونفيه . فانه لابد من ذكر تعريف كل فريق للعلة على حدة ومناقشة هذا التعريف .

تعريف العلة عند الأشاعرة :

عرّف الأشاعرة العلة بأنها " الأمر الذى جرت عادة الله تعالى بخلق الشىء عقب تحققـه .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ج ١٣ ص ٤٩٨ حـرف اللام فصل العين

والمعلول : هو ما وجد عقب تحقق العلة •

وذلك كترتب الشبع على الأكل ، والرّي على الشرب • يقال : أكل فشبع ، وشرب فروى ، بمعنى ترتب الثاني على الأول عادة • (١)

الله تعالى لا يسمى علة :

ويرى الأشاعرة أن الله سبحانه وتعالى هو الموجد بالاختيار لجميع الأشياء ابتداء بدون واسطة ، وأنه لا تأثير لغيره في الايجاد ، لا بالاختيار ولا التعليل ولا الطبع •

وأنه لا يقال للمولى تعالى علة ، كما أن صفاته سبحانه لا يقال لها علة • الا أنهم يسمون بعض الممكنات علة ، والبعض الآخر معلولا لها • فالشبع معلول للأكل والرّيّ معلول للشرب ، وكل من الأكل والشرب علة لمعلوله •

ولكن ذلك لا يفيد سوى ترتب الشبع على الأكل ، والرى على الشرب لحصوله عقيبه عادة ، وليس للمتقدم تأثير في المتأخر • (٢)

ومن خلال ما تقدم يتبين أن الأشعرى وموافقيه يرون أن التلازم بين العلة والمعلول تلازم عادى ، وليس تلازما عقليا خلافا للفلاسفة ومثبتي الأحوال من المعتزلة وغيرهم •

تعريف العلة عند الفلاسفة وأقسامها :

تعريفها :

علة الشيء ما يتوقف عليه وجود الشيء " (٣)

---

(١) الشيخ محمود أبو دقيقة ، كتاب التوحيد القسم الثالث ص٣
(٢) المصدر نفسه ص ٤
(٣) الجرجاني ، التعريفات ص ١٣٤

أو هى : مايحتاج اليه فى وجود الشىء ،وذلك الشىء المحتاج يسمى معلولا . (١) وذلك كالخشب والنجار بالنسبة للسرير فكل منهما يسمى علة .

والعلة اذا أطلقت تنصرف الى الفاعل ،وهو ما يصدر عنه الشىء بالاستقلال ، أو بانضمام غيره اليه . (٢)

أقسامهــا :

تنقسم العلة الى قسمين :

علة تامة ،وعلة ناقصة .

١) فالتامة : هى جميع مايحتاج اليه الشىء فى وجوده ،فاذا كان وجود الشىء وتحققه فى الخارج محتاجا الى فاعل ، ومادة ، وصورة فقد يتوقف وجوده على وجود شروط وزوال موانع ويسمى جميع ذلك علة تامة .

فمثلا حينما نفرض أن ظهور النبات معلول ،فان علته التامة جميع ما يحتاج اليه من بذر ،وحرث وماء ، وأرض خصبة وصلاحية الجوّ ، وفاعل يضع البذر فى الأرض .

بمعنى أن المركب العقلى من هذه الأشياء جميعها هو العلة التامة .

٢) والعلة الناقصة : هى بعض مايحتاج اليه الشىء فى وجوده :

وهى اما أن تكون جزءًا من الشىء المعلول أو أمرا خارجا عنه .

والتى تكون جزءًا من الشىء المعلول تنقسم الى قسمين :

---

(١) الأيجى ،المواقف ج ٤ ص ١٠٠ مطبوع مع الشرح للجرجانى

(٢) التفتازانى ،شرح المقاصد ج ١ ص ١٥٢

أ ـ علة مادية : وهى ما يكون به الشيء بالقوة كالخشب للسرير .

ب ـ علة صورية : وهى ما يوجد الشيء معها بالفعل كالهيئة التى يكون عليها السرير . (١)

وتسمى هاتان العلتان ـ الصورية والمادية ـ علتين للماهية داخلتين فى قوامها ، كما أنهما علتان للوجود أيضا لتوقفه عليهما ، فيخصان باسم علة الماهية ، تمييزا لهما عن الباقيتين المشاركتين لهما فى علة الوجود .

أما ما يكون خارجا عن المعلول غير داخل فى ماهيته ، ولكن يتوقف وجوده عليه ، فهو قسمان أيضا .

أ ـ علة فاعلة : وهى ما يكون به الشيء وهو غير داخل فى ماهيته كالنجار للسرير فهو الفاعل للسرير ، وغير داخل فى ماهيته .

ب ـ علة غائية : وهى الغاية من ايجاد الشيء ، أو ما لأجله وجد الشيء ، فان الغاية من صنع السرير هى الجلوس عليه .

وهاتان العلتان ـ الفاعلية والغائية ـ تخصان باسم علة الوجود دون الماهية لتوقفه عليهما ، ولأنهما لا يدخلان فيها .

والعلة الغائية : التى هى الغاية من ايجاد الشيء متقدمة على الفعل فى الوجود العلمى متأخرة فى الوجود الخارجى ، وهذه العلة هى المقصودة فى بحثنا من بين أقسام العلة .

---

(١) الايجى ، المواقف ج ٤ ص ١٠٢ والملل والنحل للشهرستانى ج ٣ ص ١٦

الفـرق بيـن الحكمـة والعلـــة

ذكر صاحب المواقف في الفرق بين العلة الغائية والحكمة:أن الغايـــة لا تكون الا لفاعل بالاختيار ،فان الموجب لا يكون لفعله علة غائية ،وان جاز أن يكون لفعله حكمة وفائدة •

وقد يسمى فائدة فعل الموجب غاية أيضا تشبيها لها بالغاية الحقيقيـــة التي هي علة غائية للفعل ،وغرض مقصود للفاعل (١)•

فالحكمة على هذا أعم من العلة الغائية ،اذ هي الفائدة المترتبة على الفعل ، فان كانت مقصودة للفاعل فعل لها فهي العلة الغائية • وان ترتبت على الفعـــل وكان الفاعل موجبا بالذات فهي فائدة وحكمة ،وليست غاية الا على سبيل التشبيه•

ولكن كلام صاحب المواقف غير مسلّم فان الحكمة كالعلة الغائية " لا تكـــون الا من مختار في فعله ،فاذا حصلت فائدة من فعل غير المختار فانها لا تعـــد حكمة بل رمية من غير رام ، فلا يقال لمتخبط قتل عقربا بحركات تخبطه انه حكيم" (٢)

فالعلة الغائية أعم من الحكمة ، لأنّ الحكمة هي العاقبة المحمودة للفعـــل الذى فعل لأجلـها •

أما العلة الغائية فقد تكون محمودة كما لو كان الفعل خيرا قصد به خير• وقد تكون مذمومة كسائر الأفعال التي يفعلها المرء تلبية لشهواته مع أن فيها ضررا يعود عليه وعلى غيره " (٣)

---

(١) الايجي ،المواقف ج ٤ ص٣ ١٠ مطبوع مع الشرح للجرجاني

(٢) انظر حاشية محمد عبده على شرح الجلال على العضدية ص١٧٩

(٣) ابن تيمية ،منهاج السنة النبوية ج ١ ص٤٣ ،٤٤

وذكر الأصوليون في الفرق بين الحكمة والعلة التي تتعلق بالأحكام الشرعية : أن العلة وصف ظاهر منضبط محدود أقامه الشارع أمارة على الحكم •

أما الحكمة فهي وصف مناسب للحكم يتحقق في أكثر الأحوال ولكنه غير منضبط ، وغير محدود • ومثلوا لذلك بقصر الصلاة فالعلة في قصر الصلاة هو السفر • أما الحكمة من قصر الصلاة فهي مظنة المشقة في السفر فقد تتحقق المشقة وقد لا تتحقق • لذلك نيط الحكم الذي هو القصر بالعلة التي هي السفر لاطرادها ولم يجعلوا العلة هي المشقة لعدم اطرادها •

"وكذلك الاشتراك في العقار مثلا هو العلة في ثبوت الشفعة في العقار اذ تكون ملكيته طويلة الأمد عادة لأنه ليس مالا سائلا ينتقل من الأيدي بكثرة •

والحكمة من الشفعة هو دفع الأذى المتوقع من دخول رجل أجنبي لم يكن بين الشركاء ، وتوقع النزاع المستمر فشرعت الشفعة دفعا لهذا الأذى المتوقع ، وليس وقوعه محققا فقد يقع وقد لا يقع ، لذلك لا يناط الحكم في الشفعة بوقوع الأذى ، انما يناط بأمر آخر هو الاشتراك " (١) •

" وجمهور الفقهاء على أن الأحكام تناط بالعلة لا بالحكمة • ولكن جرى على أقلام بعض الكتاب ، التعليل بالحكمة واعتبار الحكمة مناطا للأقيسة المختلفة • وقد جرى ذلك في عبارات بعض كتب الفقه الحنفي ، وجرى ذلك في غيره من المذاهب •

ولكن الذين أكثروا من ذلك فقهاء المذهب الحنبلي وقد تصدى لبيان هذا النوع من القياس ابن تيمية وتلميذه ابن القيم •

---

(١) محمد أبو زهرة ، أصول الفقه ص ٣٨

ولذلك اعتبر الوصف المناسب يكون علة للقياس من غير نظر الى كونه منضبطا أو غير منضبط ، وقررا أنه لا يمكن أن يكون نص قرآني "أونبوى" الا وله حكمة واضحة ومصلحة مشروعة ،وبهما تناط الأحكام ، وهذه المصلحة المشروعة هى التى تربط بها الاشباه والنظائر " (١) .

فظهر من ذلك الفرق بين العلة والحكمة عند الأصوليين وهو أن العلة وصف ظاهر منضبط محدود . وأن الحكمة وصف مناسب للحكم يتحقق فى الغالب ولكنه غير منضبط وغير محدود .

وهذا رأى من جعل الأحكام تناط بالعلة لا بالحكمة . أما بعض الفقهاء . فلم يفرق بين الحكمة والعلة فى تعليل الأحكام .

---

(١) محمد أبو زهرة :أصول الفقه ص ٢٤٩

الغـــــــرض

ولما كان الغرض يقرن في الذكر مع العلة والحكمة في مبحث تعليل أفعال الله تعالى رأينا أن نعرفه ونحدد معناه حتى يتضح الفرق بينـه وبين الحكمة والعلـــة •

١) تعريف الغرض في اللغـــة :

قال في القاموس : الغرض هدف يرمى فيه (١)

وفي اللسان : " الغرض هو الهدف الذي ينصب فيرمى فيه •
والجمع أغراض "

ثم قال :

وغرضه أي حاجته وبغيته ، وفهمت غرضك أي قصدك واغترض الشيء جعله غرضه " • (٢)

فالغرض في عرف اللغة هو المقصود ، أي ما يقصده الفاعل بفعله •

ومن هنا سمي الهدف غرضا ، فالهدف حين يرمى فيه يكون مقصودا اصابته بذلك الرمي •

اذا فالغرض والقصد مترادفان في الاستعمال اللغوي •

٢) الغرض في الاصطلاح :

أما الغرض في اصطلاح علماء الكلام :

---

(١) الفيروزآبادي ، القاموس المحيط • ج ٢ باب الضاد فصل الغين
(٢) ابن منظور ، لسان العرب ج ٩ حرف الضاد فصل الغين

فقيل هو : ما لأجله يصدر الفعل من الفاعل . (١)

وقال الجلال الدواني :

" الغرض هو الأمر الباعث للفاعل على الفعل ، وهو المحرك الأول وبه يصير الفاعل فاعلا " . (٢)

وبذلك نرى توافق المعنى اللغوى والاصطلاحي للغرض وأنه غاية الفاعل من فعله ، وهو الباعث على الفعل .

وكل من فعل فعلا فلابد له من غرض وغاية من هذا الفعل . ولما كان لفظ " الغرض " قد يوحي بأن الفاعل لغرض يعود عليه من ذلك الفعل منفعة وأنه يصير الفاعل بسببه فاعلا بمعنى أنه ينفعل به ، فان الأشاعرة منعوا أن يكون له تعالى غرض في أفعاله .

يقول صاحب المسايرة :

" واعلم أن قولنا له في كل فعل حكمة ظهرت أو خفيت ليس هو بمعنى الغرض ان فسر بفائدة ترجع الى الفاعل ، فان فعله تعالى وخلقه العالم لا يعلل بالأغراض لأنه ينافي كمال الغنى عن كل شيء وان الله لغني عن العالمين " (٣) .

أما المعتزلة فعندهم : الغرض بمعنى الغاية التي يفعل لها ، وهم يوجبون أن يكون فعله تعالى معللا بالأغراض.

---

(١) شمس الدين بن محمود الأصفهاني شرح مطالع الأنظار على طوالع الأنوار ص ١٩٧

(٢) الجلال الدواني شرح العقائد العضدية ج ٢ ص ٢٠٤

(٣) الكمال بن الهمام ، المسايرة ص ١٨٦ مطبوع مع الشرح

يقول القاضي عبد الجبار في بيان المراد بالغرض :

"فأما الغرض متى أطلق ، فالمراد به العلم بالأمر المنتظر ، الذى له فعل الفعل المقدم" . الى أن قال :

فاذا كان للفعل ثمرة في المستقبل صح أن يقال في فاعله : بأن غرضه في الفعل هو ذلك الأمر ،كما نقول في التكليف :

ان الغرض به منزلة الثواب .

وان الغرض بالآلام التعويض" (١)

والحق هو ما نهج عليه السلف من عدم اطلاق الغرض في حقه تعالى والتقييد بالألفاظ التي ورد بها الشرع .

ولذلك لا تجد أحدا منهم استعمل هذه الكلمة في حقه تعالى ، لأنها قد توهم النقص (٢) كما سيأتي بيانه .

---

(١) القاضي عبد الجبار ، المغني في أبواب العدل والتوحيد ج ١٤ ص ٤٤ ، ٤٥

(٢) ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية ج ١ ص ٢٢٠

آراء الفرق

في تعليل أفعاله تعالى

ويشتمل على بابين وهما :

الباب الثاني : المثبتون للتعليل

الباب الثالث : نفاة التعليل

آراء الفرق فى تعليل أفعال الله تعالى :

تمهيـــــــد :

اتفق علماء الكلام — خلافا للفلاسفة — على أن أفعال الله تعالى تصدر عن ارادته وعلمه وما صدر عن علم وارادة فهو صادر بالاختيار ولا شيء مما يصدر بالاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شيء من أفعاله تعالى بواجب الصدور عنه لذاته (١) .

وكما اتفق علماء الكلام على أن الله تعالى تصدر عنه الأفعال بالارادة والاختيار فانهم اتفقوا على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة تنزيها له تعالى عن العبث (٢) .

الا أنهم اختلفوا فى هذه الحكمة ، هل هى مطلوبة بالفعل ومقصودة له تعالى ؟ أو أنها مترتبة على الفعل وحاصلة عقيبه وليست باعثة على الفعل .

وتبعا لذلك اختلفوا فى تعليل أفعاله تعالى ، أى هل تعلل أفعاله بالحكم والمصالح أو لا تعلل ؟

بمعنى أنه اذا فعل الفعل يفعله لغاية تكون مقصودة بذلك الفعل . أو يفعل بمحض المشيئة والارادة من غير أن يكون هناك غاية وعلة وحكمة مطلوبة فعل ذلك الفعل لأجلها .

واذا علم هذا فنقول :

ان للناس فى هذا المقام — أى تعليل أفعاله تعالى — ثلاثة أقوال :

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص٤٨

(٢) محمد عبده ، نفس المصدر ص٥٠ ومنهاج السنة لابن تيمية ج ١ ص٤٣

١) فقال بعضهم : أن الله تعالى خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعلة ولا لغرض ولا لباعث ، بل كان ذلك منه بمحض المشيئة وصرف الارادة . والقائلون بهذا هم الاشاعرة ومن وافقهم ، كالظاهرية وبعض الفقهاء .

٢) والقول المقابل لهذا وهو أنه تعالى خلق المخلوقات وفعل المفعولات وأمر بالمأمورات ، لحكمة مقصودة وهو قول المعتزلة والسلف والكرامية والمرجئة وأكثر الفقهاء وكثير من الفلاسفة .

٣) أما القول الثالث: فهو قول أكثر الفلاسفة الذين نفوا الاختيار عن الله ، وقالوا : انه تعالى موجب بالذات ، تصدر عنه الافعال على سبيل الايجاب بدون قصد ولا اختيار .

وهؤلاء ينكرون أن يفعل لحكمة أوغرض بطريق الأولى لانهم ينكرون أن يكون مختارا ، والحكمة حقيقة لا تكون الا من فاعل بالاختيار . (١)

فهذه جملة أقوال الطوائف في تعليل أفعاله تعالى .

ويهمنا في هذا البحث أن نقف على الحق من هذه الاقوال على ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة .

لذلك سنذكر كل قول ، وأدلة القائلين به ، ونناقش ما نراه مخالفا للحق الذي دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية .

ونبتدىء بالمثبتين للحكمة والتعليل فنذكر رأيهم وأدلتهم .

---

(١) أنظر مجموعة الرسائل لابن تيمية ج ١ ص ٣٢٦ — ٣٢٩

الباب الثاني

المثبتون للحكمة والتعليل

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : موقف السلف وأدلتهم

الفصل الثاني : موقف المعتزلة

الفصل الثالث : موقف الماتريدية

الفصل الاول

موقف السلف

أ — تحديد مدلول كلمة السلف :

قبل أن نتحدث عن موقف السلف لا بد من تحديد مدلول هذه الكلمة .

السلف : يطلق هذا اللفظ ويراد به الرعيل الاول من الصحابة والتابعين الذين كانوا على الفطرة السليمة ، وكانوا يستمدون عقيدتهم من القرآن الكريم والسنة المطهرة وقد مضوا قبل دخول الفلسفة اليونانية على التفكير لدى المسلمين .

ولنستطيع تحديد المراد بالسلف ، فلابد من تحديد زمانى ومنهجى :

(١) فالتحديد الزمانى :

أنهم أهل القرون الثلاثة الاولى الذين شهد لهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالافضلية حيث قال " خيركم قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" (١) .

وذلك لأن الخير فيهم كان غالبا ولم تستفحل فى عهدهم فرق الضلال كما حدث فيما بعد .

(١) صحيح البخارى المطبوع مع فتح البارى كتاب الشهادات ج ٥ ص ٢٥٨

٢) أما التجديد المنهجي :

فهم الذين يلتزمون بنصوص الكتاب والسنة ، ويردون ما اختلف فيه الناس إليهما عملا بقوله تعالى : " فان تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول " (١) .

وهذه ميزة لهم ، لأنّ الفرق الأخرى لم تلتزم ذلك التزاما كاملا على تفاوت بينهما .

فقد ردت الفرق الأخرى بعض الأحاديث الصحيحة ، وتأولت الآيات الصريحة ، لزعمهم أنها تصادم العقل أو تتعارض معه ، كما في آيات الصفات وأحاديثها حيث لم يثبتها كلها الا السلف وأتباعهم .

" أما من جاء بعد القرون الثلاثة وتبع نهج السلف فانه ينسب اليهم فيقال " سلفي " ومن لم يوافق الكتاب والسنة في جميع ما يجب اعتقاده وعمله فليس بسلفي ولو كان ممن عاش في القرون الثلاثة " (٢)

ويرجع الفضل في تجديد مذهب السلف والذّب عنه لشيخ الاسلام أبي العباس تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الذي عاش في القرنين السابع والثامن الهجريين ، وتلميذه الامام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم رحمهما الله . فقد ألفا الكتب العديدة والرسائل المفيدة في محاربة البدع والعقائد المنحرفة ، والرد على الفرق المخالفة لمنهج الكتاب والسنة .

---

(١) سورة النساء آية ٥٩

(٢) انظر كتاب " الامام ابن تيمية " تأليف محمد السيد الجلنيد ص ٥١ ، ٥٢

أولاً- الحكمة عند السلف :

يرى السلف أن الله تعالى حكيم ، ولا يخلو فعل من أفعاله تعالى عن حكمة ، وغاية حميدة .

والحكمة عندهم مقصودة له تعالى يفعل لأجلها لأنه يحبها ويرضاها ، وليست كما يرى الأشاعرة وغيرهم من النفاة أن الحكمة مترتبة على الفعل وحاصلة عقيبه أي لا يفعل لأجلها ، لأنها لا تكون حينئذ حكمة بل يستحيل أن تكون حكمة وهي غير مقصودة بالفعل .

يقول الامام محمد عبده في هذا المقام :

" فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا الا ارادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل .

ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به .

فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ، اذ لو صح توهم أن مايترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة " (١) .

وقال في موضع آخر :

" اذا فلا يسمى مايترتب على الفعل حكمة الا اذا كان ، ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل ، والا لعد النائم حكيما اذا صدرت منه حركة

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ٥١

في نومه قتلت عقربا كادت تلسع طفلا ، بل يصح أن يوسم بالحكمة كثير من العجماوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة ، والبداهة تأبى ذلك" (١).

فليست الحكمة عند السلف هي مطلق المشيئة والارادة كما يقال ، لأنهما لو كانت كذلك لكان كل مريد حكيما .

يقول الامام ابن القيم رحمه الله :

" (الله) سبحانه حكيم لا يفعل شيئا عبثا ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل ، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل ، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل ، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا في مواضع لا تكاد تحصى" (٢) .

وقال في موضع آخر :

" ان كمال الرب تعالى وجلاله وحكمته وعدله ، ورحمته وقدرته ، واحسانه ، وحمده ، ومجده ، وحقائق أسمائه الحسنى تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة . وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك وتشهد ببطلانه . (٣)

وقال في موضع آخر في بيان أن الله سبحانه لا يفعل الا لحكمة وغاية حميدة والرد على من يزعم أنه لا يفعل لغاية حميدة بل بمحض المشيئة والارادة .

" ومن أعجب العجب أن تسمح نفس بانكار الحكم والعلل الغائية والمصالح

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ٥٠ بتصرف
(٢) ابن القيم ، شفاء العليل ص ٤٠٠
(٣) ابن القيم ، شفاء العليل ص ٤٣٠

التي تضمنتها هذه الشريعة الكاملة التي هي من أدل الدلائل على صدق من جاء بها، وأنه رسول الله حقا ولو لم يأت بمعجزة سواها لكانت كافية شافية، فان ما تضمنته من الحكم والمصالح والغايات الحميدة والعواقب السديدة شاهدة بأن الذى شرعها وأنزلها أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين " الى أن قال :

" فكيف يرضى أحد لنفسه انكار ذلك وجحده ؟ ومن تجمل واستحى من العقلاء قال ذلك أمر اتفاقي غير مقصود بالأمر والخلق . وسبحان الله كيف يستجيز أحد أن يظن برب العالمين ؛ وأحكم الحاكمين أنه يعذب كثيرا من خلقه أشد العذاب الأبدى لغير غاية ولا حكمة ولا سبب ، وانما هو محض مشيئة مجردة عن الحكمة والسبب ، وهل هذا الا من أسوأ الظن بالرب تعالى ؟ ،وكيف يستجيز أن يظن بربه أنه أمر ونهى وأباح وحرم ، وأحب وكره وشرع الشرائع وأمر بالحدود لا لحكمة ، ولا مصلحة يقصدها ، بل ما ثم الا مشيئة محضة رجحت مثلا على مثل بغير مرجح ،وأى رحمة تكون في هذه الشريعة ؟ وكيف يكون المبعوث بها رحمة مهداة للعالمين لو كان الأمر كما يقول النفاة " (١)

ومن خلال كلام الامام ابن القيم يتبين موقف السلف من الحكمة والتعليل ، وذلك أن أفعاله تعالى لا تكون الا لحكم وعلل غائية وغايات حميدة وأنه مما ينافي كماله ورحمته وحكمته أن تكون أفعاله وأحكامه بمحض المشيئة والارادة كما يقول النفاة ويقصد بهم الجهمية والأشاعرة .

ومن قبل ابن القيم نجد شيخه الامام ابن تيمية يثبت أن السلف بل الجمهور قائلون بالحكمة والتعليل ، وأن الحكمة ليست مطلق المشيئة والارادة . فنجده

---

(١) ابن القيم ،شفاء العليل ص ٤٣١ ، ٤٣٢ باختصار

يقول في كتاب منهاج السنة النبوية :

" وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم : بل هو حكيم في خلقه وأمره ، والحكمة ليست مطلق المشيئة ، اذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيما ، ومعلوم أن الارادة تنقسم الى محمودة ومذمومة ، بل الحكمة تتضمن مافي خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة ، والقول باثبات هذه الحكمة ليس هوقول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فقط ، بل هوقول جماهير طوائف المسلمين من أهل التفسيروالفقه والحديث والتصوف والكلام وغيرهم . فأئمة الفقهاء متفقون على اثبات الحكمة والمصالح في أحكامه الشرعية " (١)

على من تعود الحكمة عند السلف وهل هي مخلوقة ؟

بينما يرى المعتزلة أن الحكمة في أفعال الله هي المصالح التي تعود من الفعل على الخلق ، ولا يعود منها حكم على الله تعالى ، بل الحكمة مخلوقة منفصلة وليست صفة له .

فاننا نجد السلف يرون أن الفعل ما لم يكن أولى بالفاعل فانه لا يفعله فلا بد أن يكون هناك أمر يعود عليه تعالى من فعله وأمره . هذا الأمر هو حبه لمصالح عباده ، ورحمته بهم ، فهو الرحيم اللطيف ، وهو سبحانه له محاب يفعل لأجل حصولها ، كما أن له أسماء وصفات تقتضي آثارها .

ولا يلزم من ذلك أن يكون تعالى مستكملا بغيره ، وذلك لأن حكمته صفة له وليست غيرا له . " واذا كان هو الخالق لكل شيء فلا يكون مستكملا بغيره ، ولم يكن

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ج ١ ص ٤٣ ، ٤٤

محتاجاالى غيره بوجه من الوجوه .

والحوادث التي لا يمكن وجودها الا متعاقبة لا يكون عدمها في الازل نقصــا" . (١)

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

" فالحكمة تتضمن شيئين :

أحدهما : حكمة تعود اليه يحبها ويرضاها .

والثاني : (رحمة تعود) الى عباده . وهي نعمة عليهم يفرحون بهــــــا ويلتذون بها ، وهذا في المأمورات وفي المخلوقات .

أما في المأمورات فان الطاعة هويحبها ويرضاها ، ويفرح بتوبة التائــب أعظم فرح (٢) كماأنه يغار أعظم من غيرة العباد ، وغيرته أن يأتي العبـــد ما حرم عليه ، فهو يغار اذا فعل العبد ما نهاه (عنه) ويفرح اذا تاب ورجع الى ماأمر به .

والطاعة عاقبتهاسعادة الدنيا والآخرة ، وذلك مما يفرح به العبد المطيع. فكان فيما أمر به من الطاعات عاقبة حميدة تعود اليه والى عباده ، ففيها حكمة لـه ورحمة لعباده" (٣)

وبذلك يظهر الفرق بين موقف السلف والمعتزلة في نسبة الحكمة الى اللـــه

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ج ١ ص١٧ ١ باختصار

(٢) ورد في الحديث : " لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليهاطعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أوماشاء الله قال أرجع الى مكانــي ، فرجع فنام نومة ، ثم رفع رأسه فاذا راحلته عنده" صحيح البخاري كتـــاب الدعوات ج ١١ ص ١٠٢ مطبوع مع فتح الباري

(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ج ٨ ص ٣٥ ، ٣٦

حيث يرى المعتزلة أن الحكمة مخلوقة منفصلة عنه تعالى ، أما السلف فيرون أنها صفته تعالى قائمة به وأنه يعود عليه منها حبه لها ورضاه بها ؛ ولا يكون بذلك مستكملا بغيره فان الحكمة صفته ليست غيرا له .

ثانيا : التعليل :

أما التعليل : والمقصود به تعليل أفعاله تعالى بالحكم والغايات الحميدة فيرى شيخ الاسلام ابن تيمية والامام ابن القيم أن أفعال الله وأوامره معللة بعلل غائية وحكم ، وأن التعليل قد ورد في القرآن الكريم في مواضع لا تكاد تحصى بأدوات متنوعة ومن أهمها لام التعليل التي تسمى لام كي كقوله تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (١) فيسمون هذه اللام الداخلة على الفعل لام التعليل خلافا لمن يمنع ذلك ويسميها لام العاقبة .

ويوافقهم على وجود التعليل في القرآن الكريم كل منصف استقرأ الشريعة . ولذا نجد الامام الشاطبي (٢) يقول في الموافقات :

" وأما التعليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن يحصى كقوله بعد آية الوضوء " ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم " (٣) وقال في الصيام : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون " (٤) .

واذا دل الاستقراء على هذا ، وكان في مثل هذه القضية مفيدا للعلم ، فنحن نقطع بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة ، ومن هذه الجملة ثبت القياس والاجتهاد " . (٥)

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦
(٢) أبو اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ
(٣) سورة المائدة آية ٦ (٤) سورة البقرة آية ١٨٣
(٥) الشاطبي ، الموافقات ج ٢ ص ٧

وبعد أن عرفنا رأى السلف فى الحكمة والتعليل نتعرض للفظ الغرض عندهم حيث يتحاشى السلف اطلاق لفظ الغرض فى حقه تعالى ، لأنهم يتقيدون بالألفاظ التى ورد بها الشرع ، كما أن لفظ الغرض قد يوهم النقص فى حقه تعالى ، ولذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

" وأما لفظ الغرض فالمعتزلة تصرح به . وأما الفقهاء ونحوهم فهذا اللفظ يشعر عندهم بنوع من النقص اما ظلم واما حاجة . فان كثيرا من الناس اذا قال : فلان له غرض فى هذا ، أو فعل هذا لغرضه أرادوا أنه فعله لهواه ومراده المذموم ، والله منزه عن ذلك ، فعبر أهل السنة بلفظ الحكمة والرحمة والارادة ونحو ذلك مما جاء به النص " (١)

ويرى الامام ابن القيم أن لفظ " الغرض" بدعى لم يرد به كتاب ولا سنة ولا أطلقه أحد من أئمة الاسلام وأتباعهم على الله (٢) .

---

(١) ابن تيمية ، منهاج السنة ج ١ ص ٣٢٠
(٢) انظر مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٦٦

خلاصة مذهب السلف

يمكننا أن نلخص رأى السلف فى الحكمة والتعليل بما يلى :

١ ـ أن الله سبحانه وتعالى حكيم ففعله وأمره لحكمة وغاية حميدة .

٢ ـ أفعاله تعالى معللة بالحكم والمصالح التى تعود على الخلق .

٣ ـ كما يعود اليه تعالى من الحكمة حبه لها ورضاه بها .

٤ ـ أن الحكمة صفة له تعالى شأنها شأن صفاته الأخرى وليست غيراً له .

٥ ـ تتجلى حكمة الله تعالى فى أفعاله وأوامره ومخلوقاته .

٦ ـ لا يلزم من كونه يفعل لحكمة أن يكون مستكملا بغيره لأن حكمته ليست غيرا له . ولا يمكن أن يستفيد تعالى من غيره كما لا بوجه من الوجوه .

٧ ـ لا يسمون الحكمة غرضا ، لأنهم يتقيدون بالألفاظ التى ورد بها الشرع ولأن لفظ الغرض يوهم نقصا .

أدلة السلف على اثبات الحكمة والتعليل

استدل السلف لاثبات الحكمة والتعليل بأدلة منها :

أولا : أجمع المسلمون على أن الله تعالى حكيم ،ولا يجوز أن يخلو فعل الحكيم من الحكمة ، ولا تكون الحكمة الا من فاعل مختار يكون قاصدا بفعله تلك الحكمة ، وفعل لها •

أما اذا كان لا يقصد بفعله حكمة ما فلا يسمى ماترتب عليه حكمة ولا فاعله حكيما ، بل يكون من باب الاتفاق والصدفة •

ثانيا : ما يشهد به العقل من احكام الله لخلقه وبديع صنعه والفاعل المتقن لأفعاله لا تكون أفعاله عبثا بلا غاية بل لابد أن تكون لغاية باهرة وحكمة ظاهرة لا تنكرها الا العقول السقيمة •

ثالثا : واستدلوا على ذلك أيضا بالنصوص الواردة فى القرآن الكريم والتى تدل على ثبوت الحكمة والتعليل فى أفعاله تعالى • وهذه الايات أكثر من أن تحصى واليك بعضا منها :

١) آيات ورد فيها التصريح بلفظ الحكمة : كقوله تعالى :

" حكمة بالغة " (١) • وقوله : " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة " (٢)

وقوله : " ومن يوءت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا " (٣)

ولا شك أن معطى الحكمة غيره يجب أن يكون حكيما •

---

(١) سورة القمر آية ٥
(٢) سورة البقرة آية ٢٦٩
(٣) سورة النساء آية ١١٣

٢) آيات أخبر الله فيها أنه فعل كذا لكذا وأنه أمر بكذا لكذا كقوله تعالى :
" الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير . وأن الله قد أحاط بكل شيء علما " (١) .

وقوله تعالى : " رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (٢).

وقوله تعالى : " انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله " (٣) .

فاللام في الآيات المذكورة هي لام التعليل وليست لام العاقبة كما يدعى نفاة التعليل ، لأن لام العاقبة لا تكون الا في حق من هو جاهل بالعاقبة كما في قوله تعالى : " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (٤) ، وأما من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فيستحيل في حقه دخول هذه اللام ، بل اللام الواردة في أفعاله وأحكامه لام الحكمة والغاية المطلوبة (٥).

وقد جاء التعليل في القرآن الكريم بأدوات أخرى منها :
التعليل بأداة (كي) الصريحة في التعليل كما في قوله تعالى " كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم " (٦) .

وبلفظ (من أجل) كقوله تعالى " من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل . (٧)

---

(١) سورة الطلاق آية ٦٥
(٢) سورة النساء آية ١٥٦
(٣) سورة النساء آية ١٠٥
(٤) سورة القصص آية ٨
(٥) ابن القيم شفاء العليل ص ٤٠٠ ــ ٤٠٢ وفتاوى ابن تيمية ج ٨ ص ٤٤
(٦) سورة الأنفال آية ٨
(٧) سورة المائدة آية ٣٢

كما جاء التعليل (بلعل) كقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون " (١)

وجاءت لعل هنا للتعليل لأن " لعل " في كلام الله سبحانه تكون للتعليل مجردة عن معنى الترجي لانه لا يصح الترجي في حق الله تعالى ، فهي كما قال بعضهم تعليل لقوله : " اعبدوا ربكم " وقيل تعليل لقوله " خلقكم " وقد اختار الامام ابن القيم أنها تعليل للأمرين الأمر بالعبادة والخلق. (٢)

رابعا : ومن الأدلة الواردة في القرآن الكريم على تعليل أفعاله تعالى بالحكم والغايات الحميدة امتنانه على عباده بما خلق لهم وأنعم به عليهم حيث سخر لهم هذا الكون بشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وهوائه ومائه ، كل ذلك لمنافعهم وأخبر عن الحكم والغايات التي خلق تلك الأشياء لأجلها ، ومن الواضح أن ما يترتب على الفعل اذا لم يكن مقصودا بالفعل فعل الفاعل لأجله لا يمتن به.

ومن ذلك قوله تعالى " ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا " (٣).

وقوله تعالى : " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون " (٤)

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٣
(٢) ابن القيم ، شفاء العليل : ص ٤١٢
(٣) سورة النبأ آية ٦ ــ ١٦
(٤) سورة النحل آية ٥ ــ ٨

وهكذا نرى أن الله سبحانه يبين الغايات العظيمة التى خلق المخلوقات لتحصيلها ، ويبين أنه سخرها لهذا الانسان ويمتن سبحانه بتلك النعم التى أنعم بها على عباده •

فكيف يصح بعد هذا أن ينكر أحد أن تكون هذه المخلوقات لحكم مقصودة وغايات حميدة • بل انما وجدت بمحض المشيئة والارادة •

خامسا : وأيضا فان من الأدلة على ذلك انكار الله سبحانه على من زعم أنه خلق الخلق لا لحكمة وغاية كقوله تعالى : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون " (١) • وقوله تعالى : " أيحسب الانسان أن يترك سدى" (٢) • فقد أنكر سبحانه على من زعم أن يكون الله خلق الخلق هملا لا يؤمرون ولا ينهون ولا يحاسبون ولا يجزون على أعمالهم فدل ذلك على أنه تعالى خلقهم لحكمة عظيمة محبوبة له تعالى ومطلوبة وهى عبادته وتوحيده وشكره والثناء عليه وتمجيده • (٣)

سادسا : انكاره سبحانه على من زعم أنه يسوى بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين ، وبين أن حكمته وعدله يأبيان ذلك ومن ذلك قوله تعالى :
" أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون " (٤) • وقوله " أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون " (٥)

---

(١) سورة المؤمنون آية ١١٥
(٢) سورة القيامة آية ٣٦
(٣) ابن القيم ، شفاء العليل ص ٤١٦
(٤) سورة القلم آية ٣٥
(٥) سورة الجاثية آية ٢١

وهذا فى انكار التسوية بين المختلفين •

أما عدم التفريق بين المتماثلين فكقوله تعالى : " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " (١) • وقوله : " والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض " (٢) • وقوله تعالى : " ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " (٣) •

والذى دلت عليه هذه الآيات الكريمة أن حكم الشئ فى حكمته وعدله • هو حكم نظيره ومماثله ، وضد حكم مضاده ومخالفه وهكذا جرت سنته سبحانه فى خلقه •

ومن هذا يتبين أنه سبحانه يفعل بمقتضى الحكمة وفى هذا رد على من يزعم من نفاة الحكمة والتعليل أنه يفعل بمحض المشيئة والارادة بدون أن يكون فعله لحكمة مقصودة (٤) •

هذه بعض الأدلة التى أوردها الامام ابن القيم رحمه الله فى كتابه شفاء العليل وهى أدلة عقلية ونقلية فى غاية القوة والوضوح •

الى أن المستدل عليه • وهو حكمة الله تعالى التى لا يخلو فعل من أفعاله منها على حسب مايقتضيه كماله و تنزهه عن النقص يسلمه كل العقلاء ، الا أن بعض المتكلمين لا يوافقون على كون هذه الحكم مقصودة له تعالى ومطلوبة بالفعل ، لئلا يكون مستكملا بها ، كما نفوا أن يكون هناك لام تعليل فى القرآن الكريم بل سموها لام العاقبة فرارا من تعليل أفعاله تعالى • ولا يخفى ضعف هذا الكلام وقد تقدم الرد على ذلك بما فيه الكفاية •

---

(١) سورة التوبة آية ٧١
(٢) سورة التوبة آية ٦٧
(٣) سورة النساء آية ٦٩
(٤) ابن القيم ، شفاء العليل : ص ٤١٨ — ٤٢٠

الفصـــل الثانــــى

موقـــف المعتزلــــــــة

يرى المعتزلة أنه لا يجوز أن يخلو فعل من أفعاله تعالى من حكمة وغرض ،وقالوا :
" قد قام الدليل على أنه تعالى حكيم ، والحكيم من تكون أفعاله على احكام واتقان ،ولا يصح أن يفعل فعلا جزافا لا لفائدة وغاية ، بل لابد أن يريد غرضا ويقصد صلاحا " (١)

كما قالوا : ان من يفعل لا لغرض يعد عابثا والله تعالى منزه عن العبث •

واليك ما قاله القاضى عبد الجبار المعتزلى :

" ان الله سبحانه ابتدأ الخلق لعلة ،نريد بذلك وجه الحكمة الذى له حسن منه الخلق ،فيبطل على هذا الوجه قول من قال : انه تعالى خلق الخلق لا لعلة ،لما فيه من ايهام أنه خلقهم عبثا لا لوجه تقتضيه الحكمة • وذلك - أى نقص من يفعل لا لغرض - ظاهر فى الشاهد لأن الواحد اذا أراد النيل من غيره قال عنه انه يفعل الأفعال لا لعلة ولا لمعنى • فيقوم هذا القول مقام أن يقول : انه يعبث فى أفعاله واذا به فى المدح يقول : ان فلانا يفعل أفعاله لعلة صحيحة ولمعنى حسن " (٢) •

الفرق بين موقف المعتزلة والسلف - هناك فرق بين موقف السلف والمعتزلة فيما يتعلق بالحكمة والتعليل رغم أن الجميع يثبتون تعليل أفعال الله تعالى • ومن ذلك :

١) أن الحكمة بينما هى عند السلف صفة لله غير مخلوقة فانها عند المعتزلة مخلوقة منفصلة ، وهى تعود على العباد ولا يعود اليه منها حكم •

" فالمقصود بالحكمة عندهم احسانه الى الخلق ومراعاة مصالحهم ،كما أن الحكمة فى

---

(١) الشهرستانى ،نهاية الاقدام ص ٤٠٠

(٢) القاضى عبد الجبار المغنى فى أبواب العدل والتوحيد ج ١١ ص ٩٢ ، ٩٣

الامر تعويض المكلفين بالثواب" . (١)

وقالوا : الحكيم لا يفعل الا لينتفع أو ينفع غيره ، ولما تقدس تعالى عن الانتفاع تعين أنه انما يفعل لينفع العباد ، فلا يخلو فعل من أفعاله من صلاح . (٢)

وقد رد عليهم السلف في هذا القول ، وقالوا : ان الله حكيم ، والحكيم من له الحكمة فهي صفة له ، لأن اثبات المشتق يؤذن بثبوت المشتق منه ، اذا فالحكمة صفة له ، وصفاته تعالى غير مخلوقة .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية في الرد على المعتزلة في قولهم بأن الحكمة لا يعود اليه تعالى منها حكم ، ولا قام به فعل ولا نعت ، " أنتم - أيها المعتزلة - متناقضون في هذا القول لأن الاحسان الى الغير محمود لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمد لأجله ، اما لتكميل نفسه بذلك ، واما لقصده الحمد والثواب بذلك ، والما لرقة وألم يجده في نفسه يدفع بالاحسان ذلك الألم . واما لالتذاذه وسروره وفرحه بالاحسان فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذي يحصل منها الى غيرها ، فالاحسان الى الغير محمود لكون المحسن يعود اليه من فعله هذه الأمور حكم يحمد لأجله . أما اذا قدر أن وجود الاحسان وعدمه بالنسبة الى الفاعل سواء لم يعلم أن مثل هذا الفعل يحسن منه ، بل مثل هذا يعد عبثا في عقول العقلاء ، وكل من فعل فعلا ليس فيه لنفسه لذة ولا مصلحة ولا منفعة

---

(١) ابن تيمية الفتاوى ج ٨ ص ٨٩

(٢) الشهرستاني ، نهاية الاقدام ص ٣٩٧ ، ٣٩٨

بوجه من الوجوه لا عاجله ولا آجله كان عبثا ، ولم يكن محمودا على هذا .

وأنتم علتم أفعاله فرارا من العبث فوقعتم في العبث ، فان العبث هو الفعل الذى ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا فائدة تعود على الفاعل" (١)

فقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية تناقض المعتزلة ، لأنهم يوجبون أن تكون أفعال الله تعالى لحكمة هي الاحسان الى الغير دون أن يعود الى الله من ذلك حكم ويقرر أن الفاعل ما لم يعد عليه من فعله فائدة ولا منفعة ولا مصلحة فانه يعد عبثا ومقصوده بما يعود الى الله هو حبه ورضاه لتلك الحكم والمصالح" ولا يصح أن يقال انه يعود اليه نفع من تلك الحكم لأنه تعالى منزه عن الاحتياج والانتفاع بالغير" (٢) .

٢) ثم ان المعتزلة أوجبوا على الله تعالى بمقتضى الحكمة أمورا ومنعوا عليه أمورا لمخالفتها لمقتضى الحكمة .

فمما أوجبوا عليه فعل الصلاح وأوجب بعضهم الأصلح للعباد . كما أوجبوا اللطف واثابة المطيع ومعاقبة العاصي والعوض في ايلام الأطفال والبهائم .

وقد نازعهم في ذلك الماتريدية بناء على منع كون مقابلاتها خلافا للحكمة . (٣)

---

(١) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل رسالة أقوم ما قيل في الحكمة والتعليل ص ١١٩ ، ١٢٠

(٢) محمد عبده ، حاشيته على شرح الجلال على العضدية ص ١٧٧

(٣) الكمال بن الهمام المسايرة ص ١٥٥ مطبوع مع الشرح

كما لم يوافقهم السلف على ايجاب هذه المذكورات لأنه لا يجب عليه تعالى الآ ما أوجبه على نفسه .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في هذا المقام :

" وأما الايجاب عليه سبحانه وتعالى والتحريم بالقياس على خلقه فهذا قول القدرية ، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول (١)

٣) كما أن اطلاق المعتزلة لفظ (الغرض) بمعنى الحكمة في حق الله تعالى وتسمية الحكمة غرضا لا يوافق عليه السلف كما أسلفنا .

أما أدلة المعتزلة على اثبات الحكمة والتعليل فهي داخلة ضمن الأدلة التي أوردها السلف فنكتفي بذكرها فيما تقدم .

---

(١) ابن تيمية ،اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٤٠٩ ، ٤١٠

الفصل الثالث

موقف الماتريدية

ذهب أكثر الماتريدية الى القول بلزوم الحكمة فى أفعاله تعالى بمعنى أن الحكمة تترتب على أفعاله تعالى على سبيل اللزوم بمعنى عدم جواز الانفكاك تفضلا لا وجوبا .

وقد أورد الشيخ عبد الرحيم شيخ زاده (١) مسألة الحكمة من بين المسائل التى اختلف فيها الاشعرية والماتريدية حيث قال :

" الفريدة السابعة عشرة فى بيان لزوم الحكمة فى أفعاله تعالى " ذهب المشايخ من الحنفية الى أن أفعاله تعالى تترتب عليها الحكمة على سبيل اللزوم بمعنى عدم جواز الانفكاك تفضلا لا وجوبا كما هو المفهوم من تعديل العلوم والمصرح به فى شرح الجوهرة " ثم قال :

" وذهب مشايخ الاشاعرة الى أن الحكمة فى أفعاله تعالى على سبيل الجواز وعدم اللزوم ، فالفعل الالهى التابع له حكمة يجوز عندهم أن يتبعه غيرها ، وأن لا يتبعه حكمة أصلا ، فبهذا الوجه يتقرر الاختلاف" . (٢)

والتفتازانى (٣) يرى تعليل بعض الأفعال بالحكم والمصالح واليك ما قاله فى ذلك :

---

(١) عبد الرحيم بن على المؤيد الحنفى الشهير بشيخ زاده توفى سنة ٩٤٤ هـ

(٢) عبد الرحيم شيخ زاده ، نظم الفرائد فى الخلاف بين الاشعرية والماتريدية ص ٢٧

(٣) التفتازانى : مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازانى : نسبة الى تفتازان - من بلاد خراسان توفى سنة ٧٩٣ هـ انظر الاعلام للزركلى ج ٨ ص ١١٣

" الحق أن تعليل بعض الأفعال سيما الأحكام الشرعية بالحكم والمصالح ظاهر كإيجاب الحدود والكفارات ، وتحريم المسكرات وما أشبه ذلك ، والنصوص أيضا شاهدة بذلك كقوله تعالى " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون" (١)
" من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل " (٢)
" فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج" (٣) .

ولهذا كان القياس حجة الا عند شرذمة لا يعتد بهم ، وأما تعميم ذلك بأنه لا يخلو فعل من أفعاله من غرض فمحل بحث" (٤) .

أما صدر الشريعة (٥) فقد نقل عنه قوله :

" أفعاله تعالى معللة بمصالح العباد عندنا مع أنه لا يجب عليه الأصلح وما أبعد عن الحق من قال : انها غير معللة بها فان بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لاهتداء الخلق واظهار المعجزات ، فمن أنكر تعليل بعض الأفعال لا سيما الأحكام الشرعية كالحدود فقد أنكر النبوة ولذا كان القياس حجة . وأما الوقوف على ذلك في كل محل فلا يلزم" . (٦)

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦
(٢) سورة المائدة آية ٣٢
(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧
(٤) نقلا عن رسالة الدمنهوري في تنزيه الله عن الأغراض ص ٢٦ ، ٢٧
(٥) صدر الشريعة : عبيد الله بن مسعود بن محمود البخاري الحنفي صدر الشريعة الأصغر توفي سنة ٧٤٧ هـ أنظر معجم المؤلفين ج ٦ ص ٢٤٦
(٦) نقلا عن رسالة الدمنهوري في تنزيه الله تعالى عن الأغراض ص ٣٤ وانظر حاشية المرجاني على شرح الجلال ج ٢ ص ٢٠٨

وتعليل أفعاله تعالى بالحكم والمصالح ثابت عن أكثر الماتريدية ويؤيد ذلك ما قاله الكلنبوى فى حاشيته على شرح الجلال :" ولذا ذهب أكثر الماتريدية ومنهم صدر الشريعة الى تعليل أفعاله تعالى بالأغراض .

وذهب العلامة التفتازانى فى كتبه الى أن تعليل بعض أفعاله تعالى معلوم قطعا وعليه مبنى القياس" (١) .

كما نقل المرجانى فى حاشيته على شرح الجلال عن صدر الشريعة قوله : " أفعاله يترتب عليها الحكم على سبيل اللزوم عقلا بمعنى عدم الانفكاك تفضلا لا وجوبا" (٢) .

وبهذا يظهر أن أكثر الماتريدية (٣) قائلون بتعليل أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح كالمعتزلة ، الا أن المعتزلة يرون أن أفعاله تعالى معللة وجوبا ، والماتريدية يرون أنها معللة على سبيل اللزوم أى عدم الانفكاك تفضلا منه تعالى لا وجوبا .

---

(١) الكلنبوى ، حاشيته على شرح الجلال الدوانى على العضدية ج ٢ ص ٢٠٨

(٢) المرجانى ، حاشيته على شرح الجلال ج ٢ ص ٢٠٨

(٣) وأما بعض الماتريدية مثل شمس الأئمة السرخسى ، وفخر الاسلام البزدوى فانهما لم يقولا بالحسن والقبح العقليين وانما قالا بالحسن والقبح الشرعيين كالأشاعرة

البـــاب الثالـــث
نفـاة التعليـل لأفعالـه تعالـــى

ويشتمل على فصليـن :

الفصـــل الأول : الفلاسفـة
الفصـــل الثانى : الأشاعـرة

الفصـــل الاول

الفلاسفة الاسلاميـــون

قد أشرنا فيما تقدم الى أن الفلاسفة ينفون تعليل أفعاله تعالى بالاغراض والغايـات . وذلك لانهم ينفون عن البارى تعالى أن يكون مختارا فى أفعالـــه ويقولون هو موجب بالذات .

فهم يسمون البارى تعالى ـ علة تامة ـ وقد صدر عنها معلولها من غير اختيار ولا ارادة كصدور شعاع الشمس عنها .

أما الحوادث الكونية وما نشاهده من تعدد فى الآثار من وجود وعدم ، وموت وحياة ، وعلم وجهل ، وصحة ومرض ، وغير ذلك فهى بواسطة العقل الفعـــال الذى هو العقل العاشر . (١)

وقالوا : ان واجب الوجود بذاته واحد من جميع جهاته فلا يجوز أن يصدر عنه الا واحد . وهو العقل الاول الذى هو المعلول الاول للعلة التامة ، وهو ممكن الوجود بالنظر الى ذاته ، وواجب الوجود بالنظر الى الاول أى واجب الوجـــود بالذات . (٢)

---

(١) ابن سيناء ، النجاة ص ٢٧٨ وغاية المرام للآمدى ص ٢٠٥ .
والقول بأن الحوادث الكونية تصدر عن العقل الفعال هو المشهور عن الفلاسفة ولكن الجلال الدوانى يرى أن تحقيق مذهبهم غير ذلك فقـــد قال : " واعلم أن تحقيق مذهب الفلاسفة أنه لا مؤثر فى الحقيقة الا الله وأن الوسائط بمنزلة الشرائط والآلات وقد صرح به فى الشفاء لكنهم لا ينكرون التوقف على الوسائط " شرح الجلال الدوانى على العضدية ص٧٧

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٣ ص ٣٢ ، ٣٣

وبهذا يعلم أن الفلاسفة ينسبون مباشرة تدبير العالم الى العقل الفعال الذى هو العقل العاشر •

كما أنهم ينفون أن يكون واجب الوجود مختارا • وبناء على هذا يستحيل أن يكون فعله لعلة أو غرض أو غاية •

ويعلل ابن سينا (١) فى الاشارات كونه تعالى لا يفعل لغاية بقوله :

" فما أقبح ما يقال من أن الأمور العاليه تحاول أن تفعل شيئا لما تحتها ، لأن ذلك أحسن بها ، ولتكون فعالة للجميل ، وأن ذلك من المحاسن والأمور اللائقة بالأشياء الشريفة • وأن الأول الحق يفعل شيئا لأجل شئ وأن لفعله لمية " (٢)

وقد قال نصير الدين الطوسى شارح كتاب الاشارات لابن سينا عند شرح هذه العبارة ما يلى :

" وانما سلب الغاية عن فعل الحق الأول جل جلاله مطلقا لأن الفاعل الذى يفعل لغاية فهو غير تام لوجهين :

أحدهما : من حيث يقصد وجود تلك الغاية فان ذلك يقتضى كونه من حيث ذاته ناقصا فى فاعليته • والثانى من حيث تتم فاعليته بماهية تلك الغاية ، فان ذلك يقتضى كونه من حيث ذاته ناقصا فى فاعليته •

والحق الأول لما كان تاما بذاته واحدا لا كثرة فيه ولا شئ قبله ولا معه ، فانه لا غاية لفعله ، بل هو بذاته فاعل وغاية للوجود كله " • (٣)

فأفعاله تعالى عند ابن سينا لا تعلل لأنه لا يستكمل بوجود الغاية ، ولأن فاعليته

---

(١) ابن سينا : هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس توفى سنة ٤٢٧هـ •

(٢) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ج٣ ص ١٥٠

(٣) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ج٣ ص ١٥١

تامة بدون ماهية الغاية .

ويقول ابن سينا فى موضع آخر لبيان منع الغرض عن فعل الله :

" والعالى لا يكون طالبا أمرا لأجل السافل حتى يكون ذلك جاريا منه مجرى الغرض . فان ما هو غرض لقد يتميز عند الاختيار من نقيضه ، ويكون عند المختار أنه أولى وأوجب ، حتى انه لو صح أن يقال فيه انه أولى فى نفسه وأحسن ، ثم لم يكن عند الفاعل أن طلبه وارادته أولى به وأحسن لم يكن غرضا .

فاذن الجواد والملك لا غرض له ، والعالى لا غرض له فى السافل .(١)

ومما تقدم يتضح أن الفلاسفة ينفون أن يكون للبارى تعالى غاية وغرض فى أفعاله لأنه تعالى كامل بذاته ومن يفعل لغاية فهو غير كامل بذاته ، بل يكون مستكملا بوجود تلك الغاية .

كما أن الفلاسفة ينفون أن يكون تعالى مختارا فى أفعاله بل هو فاعل بالذات أى تصدر عنه أفعاله على سبيل الايجاب فلا يكون فعله لغاية .

ولا يخفى وجه الفساد فى هذا فقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى يفعل بالاختيار والارادة وأن ذلك من كماله تعالى.

أما حجة الاستكمال التى أوردها الطوسى شارح الاشارات على منع الغاية من أفعاله تعالى فسيأتى الجواب عنها عند الكلام على أدلة الأشاعرة على نفى التعليل لأفعاله تعالى . وكون فاعليته تامة لا ينافى أن تكون هذه الفاعلية لغاية ، واذا كانت ماهية الفاعلية لا توجد بدون الغاية فلا يقال انها تامة بدون الغاية .

---

(١) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ج٣ ص١٥٤ ، ١٥٥

الفصـــــل الثانـــــى

موقـــف الأشاعــــرة

يرى الأشاعرة أن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض والغايات • وانما يفعل تعالى بمحض المشيئة والارادة دون أن يتوقف فعله على الحكم ، فلا يبعثه باعث علـــى الفعل •

ويترتب على فعله حكم ولكنها غير مقصودة بل هى مترتبة على الفعل وحاصلـــــة عقيبه •

وبهذا القول قال مشايخ الأشاعرة ، واليك بعض ماجاء فى مصنفاتهم :

قال الشريف الجرجانى فى شرحه على المواقف •

" المقصد الثامن فى أن أفعاله تعالى ليست معللة بالأغراض اليه ذهبت الأشاعرة وقالوا لا يجوز تعليل أفعاله تعالى بشىء من الأغراض والعلل الغائية ، ووافقهم علـــى ذلك جهابذة الحكماء وطوائف الالهيين " (١) •

وقال الشهرستانـــى :

" القاعدة الثامنة عشر : فى ابطال الغرض والعلة فى أفعاله تعالى " " مذهـــب أهل الحق أن الله تعالى خلق العالم بما فيه من الجواهر والأعراض وأصناف الخلق والأنواع ، لا لعلة حاملة له على الفعل "سواء قدرت تلك العلة نافعة له أو غير نافعـــة ، اذ ليس يقبل النفع والضر ، أو قدرت تلك العلة نافعة للخلق ، اذ ليس يبعثه على الفعل باعث فلا غرض له فى أفعاله ولا حامل بل علة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه " • (٢)

---

(١) الايجى ، المواقف ج ٨ ص ٢٠٢ وقد أوردت المتن ممزوجا مع الشرح للشريف الجرجانى

(٢) الشهرستانى ، نهاية الاقدام ص ٣٩٧

وقال الآمدى فى غاية المرام :

" مذهب أهل الحق أن البارى تعالى خلق العالم وأبدعه لا لغاية يستند الابداع اليها ، ولا لحكمة يتوقف الخلق عليها ، بل كل ما أبدعه من خير وشر ونفع وضر ، لم يكن لغرض قاده اليه ، ولا لمقصود أوجب الفعل عليه" (١) .

وقال محمد بن عمر الرازي فى الأربعين فى أصول الدين :

" المسئلة السادسة والعشرون : فى أنه لا يجوز أن تكون أفعاله تعالى معللة بعلة البتة .

اتفقت المعتزلة على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة برعاية مصالح العباد وهو اختيار أكثر المتأخرين من الفقهاء وهذا عندنا باطل" (٢)

ومن هذه النصوص يبدو جليا أن الأشاعرة من نفاة التعليل لأفعاله تعالى بالحكم والمصالح والأغراض والغايات .

أما نفيهم للغرض والعلة فهم يطلقون ذلك بدون استثناء فى مصنفاتهم .

وأما الحكمة ، فانهم لا ينفونها ، وانما ينفون أن تتوقف أفعاله على الحكم . بل الحكم مترتبة على أفعاله ، وحاصلة عقيبها أى ليست هذه الحكم مقصودة ومطلوبة بالفعل كما يراه المعتزلة ومن وافقهم .

تحرير محل النزاع بين الأشاعرة والمعتزلة :

وأصل الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة هو :

---

(١) الآمدى ، غاية المرام فى علم الكلام ص ٢٢٤ والآمدى هو : على بن أبى على ابن محمد بن سالم الملقب سيف الدين ولد سنة ٥٥١ وتوفى سنة ٦٣١ هـ

(٢) الرازى ، الأربعين فى أصول الدين ص ٢٤٩ والرازى هو : محمد بن عمر المتوفى سنة ٦٠٦ هـ

هل هناك أغراض وغايات باعثة له تعالى على الفعل ، فلا يفعل الا لعلة ؟ فالمعتزلة يرون ذلك ، وتلك الأغراض هى مصالح العباد ، أما الأشاعرة فانهم يمنعون ذلك .

وقد ردّ الأشاعرة على ما احتج به المعتزلة على اثبات الغرض ، وهو قولهم : بأن الفعل الخالى عن الغرض عبث وأنه قبيح يجب تنزيه الله تعالى عنه فلابد اذن فى فعله من غرض نفيا للعبث ولابد أن يكون الغرض عائدا على غيره اذ لا ينتفع بالغرض ولا يتضرر بتركه .

ورد الأشاعرة عليهم : بأن العبث ما كان خاليا عن الفوائد والمنافع ، وأفعاله تعالى محكمة متقنة مشتملة على حكم ومصالح راجعة الى مخلوقاته ، لكنها ليست أسبابا باعثة لفعله ، وعللا غائية لفاعليته حتى يلزم استكماله بها ، بل تكون غايات ومنافع لأفعاله وآثار مترتبة عليها ، فلا يلزم أن يكون شىء من أفعاله عبثا .

ثم ان العبث انما يتصور فى حق من تلحقه الفوائد والله تعالى لا ينتفع بشىء ولا يتضرر بشىء . فحقيقة العبث لا تتصور فى حقه تعالى .

وقالوا : ان ما ورد من الآيات والأحاديث الدالة على تعليل أفعاله تعالى بالأغراض فهو محمول على الحكم والمصالح دون الغرض والعلة الغائية . (١)

ولا يخفى أن اثبات حكم ومصالح مترتبة على أفعاله مع نفى أن تكون مقصودة ومطلوبة بالفعل ، لا يخفى أن ذلك تكلف من الأشاعرة وتمحل . وقد مثلوا لهذه الحكم غير المقصودة بمثال من يغرس غرسا لأجل الثمرة ، فانه يعلم ما يترتب عليه من المنافع من استظلال الناس بها ، وانتفاعهم بأغصانها الى غير ذلك . ولكن الباعث له على الغرس

---

(١) الايجى ، المواقف ج ٨ ص ٢٠٥

هو الثمرة لا غير .

فكذلك الفوائد والمصالح المترتبة على فعله فانها بمنزلة ما سوى الثمرة بالنسبة الى الغارس. (١)

وهذا المثال لا يقره المنصفون ، ولذا قال الامام محمد عبده فى حاشيته على شرح الجلال الدوانى بعد أن قرر أن الفعل لا يسمى حكمة ، الا اذا كان مقصودا من الفاعل ، لأن ما يترتب على عمل من أعمالك بدون قصد منك اليه لا يعد منك حكمة ، بل رمية بغير رام وأنه لا يقال لمتخبط قتل عقربا بحركات تخبطه أنه حكيم بذلك العمل .

قال معقبا على المثال الآنف الذكر وهو أن الغارس لم يبعثه على الغرس سوى الثمرة .

" هذا تمثيل بارد فانه قد مثل برجل خسيس الطبع دنئ الهمة قد قصر كماله على بعض ما يترتب على فعله وهو غافل عن الباقى .

ثم قال : فعدم قصده لذلك اما لنقصه فى ذاته أو جهله على أنه قد قصد غاية فنيت فيها الغايات ، فعدم قصده لغيرها لما أنه لم يحضره أن الغير مصلحة " (٢) .

والحاصل : أن الاشاعرة ينفون أن تكون أفعاله لغرض أو باعث أو علة غائية .

وأما الحكمة فانهم يرون أن أفعاله تعالى مشتملة على الحكم والمصالح جوازا لا لزوما ولا وجوبا . ولكن هذه المصالح مترتبة على الفعل وتابعة له وليست باعثة له تعالى .

---

(١) الجلال الدوانى ، شرح العضدية ج ٢ ص ٢٠٧

(٢) محمد عبده ، حاشيته على شرح الجلال على العضدية ص ١٧٩

لام التعليل ورأى الأشاعرة فيهـا

ولما احتج القائلون بالتعليل بورود التعليل فى القرآن الكريم مدلولا عليه بـلام التعليل وذلك فى مثل قوله تعالى : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون" (١)

أجاب الأشاعرة عن ذلك بأن هذه اللام ليست لام التعليل بل هى لام العاقبة والصيرورة •

فليس المراد أن العبادة باعثة لله تعالى على خلق الجن والانس ، اذ لو كانت كذلك لاقتضى الأمر أن يكون تعالى مستكملا بعبادة الخلق له ، ولذلك احتاج اليها فخلق الخلق من أجلها •

وانما المراد عاقبة الأمر وصيرورة الحال أى لما وجد الخلق كلفوا بالعبادة فترتب التكليف بالعبادة على وجود الخلق

قال الشهرستانى :

" وأما الآيات فى مثل قوله تعالى " ولتجزى كل نفس بما كسبت " (٢) فهى لام المآل وصيرورة الأمر ، وصيرورة العاقبة لا لام التعليل ، كما قال تعالى " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (٣) ، (٤) •

وقال السنوسى (٥) فى شرح القواعد :

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦
(٢) سورة الجاثية آية ٢٢
(٣) سورة القصص آية ٨
(٤) الشهرستانى ، نهاية الاقدام فى علم الكلام ص ٤٠٢
(٥) أبوعبد الله محمد بن يوسف السنوسى التلمسانى الحسنى توفى سنة ٨٩٥ هـ

" ومن الجهل بفن علم البيان أخذ المعتزلة تعليل أفعاله تعالى بالأغراض من قولـــه جل وعلا " وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (١) • فجعلوا اللام للتعليـــل حقيقة ولو خالطوا فن البيان لعرفوا أن الآية من باب الاستعارة التبعية (٢) •

وأنه شبه التكليف بالعبادة فى ترتبه على الخلق بالعلة الغائية التى تترتب علـى الفعل ويقصد الفعل لأجلها ، فجعلت العبادة أى التكليف بها لأجل هذه الشبـــه علة غائية بطريق الاستعارة ، فتبع ذلك استعارة اللام الموضوعة للتعليل •

ودخلت على العبادة للدلالة على العلة المجازية " (٣)

وقد سبق أن بينا رأى السلف فى لام العاقبة وأنها لا تكون فى حقه تعالى ، بل تكون فى حق من يجهل العاقبة للفعل الذى يقدم عليه كما فى قوله تعالى : " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (٤) •

فان فرعون لم يكن يعلم عاقبة تربيته لموسى عليه السلام حيث كان هلاكه على يديه • وأما من هو بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير فلا تكون هذه اللام فى حقه" • (٥)

واذا تأملنا نجد أنه لا وجه لانكار ورود تعليل أفعال الله تعالى فى القرآن الكريم وصرف اللام عن كونها للتعليل الى كونها للعاقبة ، وذلك لأن التعليل قد ورد بأدوات أخرى غير اللام فقد وردت أداة " كى " الصريحة فى التعليل و " من أجل " وغير ذلك • مما يفيد التعليل كما سبق ذكره •

وقد أقر بالتعليل غير المعتزلة كالشاطبى والتفتازانى وصدر الشريعة وغيرهم •

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦

(٢) لأنها أجريت فى حرف وهو اللام

(٣) نقلا عن رسالة الدمنهورى المخطوطة فى تنزيه أفعال الله عن الأغراض ص ١١

(٤) سورة القصص آية ٨

(٥) انظر شفاء العليل لابن القيم ص ٢٠٤ ، وبيان تلبيس الجهمية فى تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية ج ١ ص ٢١٧

أدلـة الأشاعـرة والجـواب عنهــا

اعتمد الأشاعرة فى نفى تعليل أفعاله تعالى بالأغراض والغايات على حجج عقليه وقد ذكرها الرازى فى كتابه الأربعين ٠(١) وسنورد هذه الأدلة مع ايراد جـواب المثبتين للتعليل عنها ٠

الدليـل الأول :

أن كل من فعل فعلا لأجل تحصيل مصلحة أو دفع مفسدة كان ناقصا بذاته مستكملا بذلك الفعل وذلك محال فى حق الله تعالى ٠

وتقرير ذلك :

أن من فعل فعلا لأجل تحصيل مصلحة ،فان كان تحصيل تلك المصلحة أولى من عـدم تحصيلها كان ذلك الفاعل قد استفاد بذلك الفعل **تحصيل تلك** الأولوية ،وكل من كان كذلك كان ناقصا بذاته مستكملا بغيره ، والاستكمال بالغير فى حق الله تعالى محال ٠

وان كان تحصيلها وعدم تحصيلها بالنسبة اليه سواء فحينئذ لا يحصل منه ترجيح أحدهما على الآخر ومع عدم ترجيح التحصيل يمتنع التحصيل ٠

وقد نوقش هذا الدليل بمايلى :

١) قولكم (انه يكون ناقصا بذاته) غير لازم ، لأن الحكمة قبل حصولها لا تعتبر كمـالا ، وما ليس بكمال فى وقت لا يعتبر عدمه نقصا فيه ٠ فالكمال اذا كان مترتبا علـى الفعل امتنع حصوله قبل الفعل فلا يكون عدمه قبل الفعل نقصا ٠

---

(١) راجع كتاب محمد بن عمر الرازى الأربعين فى أصول الدين ص٢٤٩ ــ ٢٥١ من غيره كما لا بوجه من الوجوه ٠

٢) أما قولكم " انه يلزم من ذلك ان يكون مستكملا بغيره ان أردتم به أن الحكمة التى فعل لأجلها حصلت له من شيء خارج عنه فذلك باطل لأنه لا رب سواه ولم يستفد من غيره كمالا بوجه من الوجوه .

وان أردتم أن تلك الحكمة غيرا له وهو مستكمل بها . فيقال ان تلك الحكمة صفته سبحانه ، وصفاته ليست غيرا له ، فان حكمته قائمة به ، وهو الحكيم الذى له الحكمة كما أنه العليم الذى له العلم ، والقدير الذى له القدرة .

الدليل الثانى :

لو كان فعله تعالى معللا بعلة ، فهذه العلة اما أن تكون قديمة فيلزم من قدمها قدم الفعل ، لأن العلة التامة يجب أن يكون معها معلولها فى الزمان ، وهذا خلاف ما قام عليه الدليل من أن كل ما سوى الله تعالى حادث .

وان كانت هذه العلة حادثة ، فان حدثت لا لسبب لزم ترجيح أحد المتساويين بلا مرجح وهو محال .

وان حدثت لسبب حادث نقلنا الكلام الى ذلك السبب الحادث ، فان حدث لا لعلة لزم الترجيح بلا مرجح . وان حدث لعلة فتلك العلة لا بد لها من علة أخرى وهكذا فيلزم التسلسل .

وقد نوقش هذا الدليل بما يلى :

١) قولكم (ان كانت العلة قديمة لزم من قدمها قدم الفعل وهو محال) .

فالجواب : أنه لا يخلو : اما أن يكون الفعل قديم العين أو قديم

النوع ، أو لا يمكن واحد منهما .

فان أمكن أن يكون قديم العين أوالنوع أمكن في الحكمة التي يكون الفعل لأجلها أن تكون كذلك . وان لم يمكن أن يكون الفعل قديم العين ولا النوع بل هو حادث العين أو النوع كانت الحكمة كذلك ، فالحكمة يحذى بها حذو الفعل فما جاز على الفعل جاز عليها ، وما امتنع عليه امتنع عليها .

٢) ان غاية هذه الحجة لزوم التسلسل ، فانه اذا كان يفعل لعلة فهذه العلة تحتاج الى علة أخرى وهكذا . فيقال :

ان كان هناك تسلسل فهو في الآثار المستقبلة وهو ممكن ، بل واجب باتفاق جماهير المسلمين ، لأنّ نعيم الجنة دائم لا يقف عند حد اذ مامن نعيم الا وبعده نعيم الى لا نهاية .

وانما قلنا بكون التسلسل في الآثار المستقبلة ، لأنّ الحكمة التي لأجلها يفعل الفعل تكون حاصلة بعده .

فاذا اقتضت هذه الحكمة حكمة أخرى بعدها كان هناك تسلسل في الحوادث المستقبلة وهو جائز ، ولم ينازع فيه الا بعض أهل البدع من الجهمية والمعتزلة كالجهم بن صفوان وأبي الهذيل العلاف .

وفي هذا يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

" هذا التسلسل في الحوادث المستقبلة لا في الحوادث الماضية ، فانه اذا فعل فعلا لحكمة كانت الحكمة حاصلة بعد الفعل ، فاذا كانت تلك الحكمة يطلب منها حكمة أخرى بعدها كان تسلسلا في المستقبل ، وتلك الحكمة الحاصلة محبوبة له ، وسبب لحكمة ثانية ، فهو لا يزال سبحانه يحدث

من الحكم مايحبه ويجعله سببا لمايحبه" (١) .

أما التسلسل الممنوع فهوالتسلسل في العلل والفاعلين ، وذلك بأن يكون لهذا الفاعل فاعل قبله وكذلك ما قبله الى غير نهاية . وهذا محال باتفاق العقلاء لاستلزامه اجتماع علل غير متناهية مترتبةفي وقت واحد ، اذ العلة التامة لا يتأخر عنها معلولها زمانا .

الدليل الثالث :

أن جميع الاغراض يرجع حاصلها الى شيئين :

تحصيل اللذةوالسرور ، ودفع الالم والحزن ، والله تعالى قادرعلى تحصيل المطلوب ابتداء بدون وسائط .

وكل من كان قادرا على تحصيل المطلوب بدون وسائط كان توسله الى تحصيل ذلك المطلوب بتلك الوسائط عبثا ، والعبث محال في حقه تعالى .

وقد نوقش هذا الدليل بمايلي :

١) لا يلزم اذا كان الشيء مقدورا ممكنا أن يكون ممكنا وجوده بدون وجود ما يتوقف عليه .

فان الموقوف على الشيء يمتنع حصوله بدونه ، كما يمتنع وجود الابن بوصف كونه ابنا بدون الأب ، لأنّ وجود الملزوم بدون لازمه محال .

فاذا كان الأمران مقدورين لم يكن العدول عن أحدهما الى الآخر عبثا

---

(١) ابن تيميه ، منهاج السنة النبوية ج ١ ص ٤٥

الا اذا تساويا من كل وجه . ولا يمكن تساويهما ، فان ارسال الرسل لهداية الناس ، والله قادر على هدايتهم بدون ارسال الرسل ولكن ارسالهم وعدم ارسالهم لا يتساويان ، ذلك أن ارسالهم به قطع الله حجة من لم يؤمن .

ومما تقدم يتبين بطلان قولهم : من كان قادرا على تحصيل المطلوب ابتداء كان توسله الى تحصيله بواسطة عبثا . وذلك لأنّ الواسطة اذا كانت شرطا أو سببا كان لا بد من وجودها ،لأنّ المشروط متوقف على شرطه وكذلك المسبب متوقف على سببه ،فايجادها لفائدة لا عبثا ، لأنّ العبث هو ما لا فائدة له .

ثم ان قولكم : " ان العبث على الله محال " يلزم منه ألا يفعل الله الا لحكمة .

٢) قولكم ان جميع الأغراض يرجع حاصلها الى شيئين تحصيل اللذة والسرور ودفع الألم والحزن" اذا أردتم به أن حكمة الله هي ماذكرتم فهي دعوى بلا برهان ، لأنّ حكمة الرب تعالى فوق تحصيل اللذة ودفع الألم ، بل هو يتعالى عن ذلك لأنّ ماذكر غرض المخلوق ، أما الخالق سبحانه فهو غني بذاته عن كل ما سواه فحكمته سبحانه لا تشابه حكمة المخلوقين ، كما أن ارادته وسائر صفاته لا تشابه صفات المخلوقين .

فحكمته سبحانه أجلّ وأعلى من أن يقال : انها تحصيل لذة أو دفع ألم وحزن .

الدليل الرابع :

لو كانت أفعاله معللة بالأغراض والحكم ماخلا فعل من أفعاله عن الحكمة لكن التالي باطل : لأننا نشاهد في هذه الدنيا من أنواع الكفر والشرور والفتن الكثير ، فما هي الحكمة في ايجادها ؟

وأى حكمة فى تعذيب الكفار تعذيبا دائما فى الآخرة بل وأى حكمة فى ايلام الأطفال والبهائم . فدل ذلك أنه تعالى انما يفعل بمحض المشيئة وصرف الارادة (١) .

وأجيب عن هذا الدليل بالتالى :

١) أن الحكمة انما تتعلق بالوجود والحدوث . والكفر والشرور وأنواع المعاصى انما هى نتيجة لترك ما أمر الله به ، فهى عقوبة على ترك داعى الفطرة وعدم الطاعة .

ونحن عندما التزمنا الحكمة انما التزمناها فيما يفعله الله ويوجده ، أما ما يتركه فهو — وان كان لحكمة — الا أنه لا يدخل فى كلامنا فلا يرد علينا ، فاذا ترك العبد ونفسه نتيجة عصيانه ، ففعل الشر كان حدوث الشر بسبب أنه وكل العبد لنفسه ، ولم يخلق فيه قدرة الطاعة ، وهذا لا يدخل تحت الفعل ، فالشر لا ينسب الى الله (٢) لأنه عدم الخير وأسبابه ، والعدم ليس بشىء كاسمه .

فحينما نقول : ان أفعال الرب تعالى واقعة بحكمة وغاية محمودة لم يرد علينا تركه .

والله سبحانه وتعالى قد يترك ما لو خلقه لكان فى خلقه له حكمة ولكنه يتركه لعدم محبته لوجوده ، أو لكون وجوده يضاد ما هو أحب اليه ، فلما كان وجوده يستلزم فوات ما هو أحب اليه فانه يتركه .

---

(١) كل الأدلة المذكورة أوردها الرازى فى كتاب الأربعين فى أصول الدين من ص ٢٤٩ — ٢٥١

(٢) ورد فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم " والخير كله فى يديك والشر ليس اليك " رواه مسلم فى كتاب المسافرين : ص ٢٠١

٢) أن الحكمة انما تتم بخلق المتضادات ، والمتقابلات كخلق الليل والنهار ، والعلو والسفل ، والطيب والخبيث ، والحلو والمر ، والبرد والحر ، والالم واللذة والمرض والصحة ، والحياة والموت .

فخلق هذه المتقابلات دليل على الحكمة الباهرة والملك التام ، والقدرة القاهرة .

وصفات الله سبحانه وتعالى لكل صفة منها مقتضيات وآثار هي مظهر كمالها ، وان كانت كاملة في نفسها ، لكن ظهور آثارها وأحكامها من كمالها فلا يجوز تعطيلها .

فان صفة القدرة تستدعي مقدورا .

وصفة الخالق تستدعي مخلوقا .

وكذلك صفة الوهاب ، الرزاق ، المعطي ، المانع ، الضار النافع ، المعز المذل ، الرحيم الجبار . كلها تقتضي آثارها وأحكامها .

فلو عطلت تلك الصفات عن المخلوق المرزوق ، المرحوم المعز ، المذل ، لم يظهر كمالها .

كما أن صفاته تعالى اقتضت أن يكون في الخلق مؤمن وكافر ، ومطيع وعاص . — وان كان الكفر نتيجة خذلان الله تعالى — فلا ظلم من الله تعالى اذ لم يمنع العبد حقا له بعدم توفيقه . والعصيان قد يكون عقوبة على ذنب اقترفه العبد فاقتضت صفاته ذلك ليكون من العاصي تضرع وانابة الى الله .

ومن المؤمن المطيع شكر له تعالى على هدايته وتوفيقه له . ولا شك أن التوبة

والشكر نافعان ، فنفعهما ترجع الى العبد ، وهما محبوبان لله عز وجل .

ولو كان الخلق كلهم مطيعين لتعطل أثر كثير من الصفات ؛ وكيف كان يظهر أثر صفة العفو ، والمغفرة ، والانتقام والقهر .

٣) وأما ما قلتم من تعذيب البهائم والأطفال ونحوه فاننا لم نقل ان حكمة الله يجب أو يمكن اطلاع الخلق عليها في كل فعل له تعالى ، فحكمة الله أعظم وأجل من أن يحاط بها . وقد يكون اخفاء الحكمة لحكمة جليلة .

وعلى هذا فما ذكرتم من الصور مشتمل على حكم جليلة وان خفيت علينا كما قال لملائكته " انى أعلم ما لا تعلمون" (١) .

وانما يلزمنا قولكم اذا ادعينا أن جميع الحكم معلومة ظاهرة للخلق ، ونحن لا ندعي ذلك ، بل نعتقد أنه لا يخلو فعل من أفعاله عن حكمة سواء ظهرت أو خفيت . (٢)

النتيجة

اذا تأملنا أدلة الاشاعرة على نفي التعليل نجد أنها مجرد شبهات لا تستند الى نص من كتاب أو سنة بل عوّلوا فيها على عقولهم ، والعقل البشرى ليس في امكانه

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) راجع في الرد على أدلة نفاة التعليل كتاب شفاء العليل لابن القيم من ص ٤٣٥ — ٤٦١

معرفة الصواب في كل شيء .

والواجب أن يخضع العقل في معرفة ذلك لما جاء في النصوص المعصومة عن الله ورسوله .

أما الأدلة التي يعول فيها على العقل وحده فقد تتضارب وتتناقض ويتنازع أصحابها ولا أدل على ذلك من اختلاف المعتمدين على العقل في أكثر المسائل . وعلى سبيل المثال مسألة تعليل أفعاله تعالى التي نحن بصددها فنجد المعتمدين على الأدلة العقلية اختلفوا فيها :

فالفلاسفة والأشاعرة ينفون أن تكون أفعاله تعالى لغاية وغرض لئلا يلزم أن يكون ناقصا قبل ذلك ومستكملا بذلك الغرض .

والمعتزلة يوجبون تعليل أفعاله بالأغراض لأن من يفعل لا لغرض يكون عابثا والعبث قبيح يتنزه الله عنه وقد تقدم الكلام في ذلك .

وقد اضطر نفاة التعليل الى تأول النصوص الدالة على التعليل وصرفها عن معانيها بغير دليل سوى أن عقولهم لم تقبلها .

وخلاصة القول في الحكمة والتعليل :

أن الحق هو ما عليه السلف ومن وافقهم وهو :

أن أفعاله تعالى تعلل بالحكم والغايات الحميدة التي تعود على الخلق بالمصالح والمنافع ويعود الى الله تعالى حبه ورضاه لتلك الحكم ، وهذه الحكم مقصودة ويفعل لأجل حصولها كما تدل عليه النصوص من القرآن الكريم والسنة . وقد أوردنا بعضها عند ذكر أدلتهم على اثبات التعليل . والله أعلم .

البـــــاب الرابـــــع

الحســـن والقبـــح العقليـــــان

ويشتمل على خمسة فصول :

الفصـــل الأول : معانى الحسن والقبح وتحرير محل النزاع بين الأشاعرة والمعتزلة •

الفصـــل الثانى : تحديد مفهوم الحسن والقبح لدى السلف •

الفصـــل الثالـــث : تحديد مفهوم الحسن والقبح لدى الماتريدية •

الفصـــل الرابـــع : أدلة كل من مثبتى الحسن والقبح العقليين ونفاتهما •

الفصـــل الخامـــس : هل يجب على الله شئ ؟ ومناقشة المعتزلة فى الأمور التى أوجبوها على الله •

الحســن والقبــح العقليـــــان

تمهيـــد :

نورد هنا مبحث الحسن والقبح العقليين لما له من ارتباط وثيق بموضـــوع الحكمة والتعليل •

وذلك لأن من أثبت الحسن والقبح العقليين قال بتعليل أفعاله تعالى بالحكم • ومن نفى الحسن والقبح العقليين نفى التعليل •

ومما يؤكد علاقة الحسن والقبح العقليين بموضوع التعليل ما قاله الامام ابن القيم : " وكل من تكلم فى علل الشرع ومحاسنه وما تضمنه من المصالح ودرء المفاسد فلايمكنـه ذلك الا بتقرير الحسن والقبح العقليين ، اذ لو كان حسنه وقبحه بمجرد الأمــــر والنهى لم يتعرض فى اثبات ذلك لغير الأمر والنهى فقط " (١) •

والمعتزلة لما كان من مذهبهم القول بتحسين العقل وتقبيحه تفرع عن ذلك قولهــــم أن من يفعل لا لغرض يكون عابثا ، والعبث قبيح والله منزه عن فعل القبيح فثبت أن أفعاله يجب أن تكون لأغراض وحكم •

والأشاعرة ــ لما كان من مذهبهم أن العقل لا يحكم بحسن ولا قبح ، بــــل الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، وأن الأفعال فى أنفسها سواء قبــل ورود الشرع ، وليس الحسن والقبح صفتين ذاتيتين للأشياء ــ قالوا ان أفعاله تعالــى ليست معللة بالأغراض والغايات •

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٤٢

لذلك لا بد أن نتناول في مبحث الحسن والقبح مايلي :

١) معاني الحسن والقبح وتحرير محل النزاع بين المعتزلة والأشاعرة وبيان آرائهم .

٢) مفهوم الحسن والقبح عند السلف .

٣) مفهوم الحسن والقبح عند الماتريدية .

٤) أدلة كل من مثبتي الحسن والقبح العقليين ونفاتهما .

الفصل الأول

معاني الحسن والقبح وتحرير محل النزاع بين الأشاعرة والمعتزلة

يطلق الحسن والقبح على معان ثلاثة :

١) المعنى الأول : كون الصفة صفة كمال أو نقصان كالعلم والجهل .

فيقال : العلم حسن بمعنى أنه لمن اتصف به كمال وارتفاع شأن .

ويقال : الجهل قبيح بمعنى أنه لمن اتصف به نقصان واتضاع حال .

٢) المعنى الثاني : الملاءمة والمنافرة .

فالحسن على هذا ما لاءم الغرض .

والقبيح ما خالف الغرض .

وما ليس كذلك لم يكن حسنا ولا قبيحا .

وقد يعبر عن الحسن والقبح بهذا المعنى بالمصلحة والمفسدة ، فيقال : الحسن ما فيه مصلحة ، والقبيح ما فيه مفسدة ، وما خلا عنهما لا يكون شيئا منهما .

ويختلف الحسن والقبح بهذا المعنى بالاعتبار ، فليس كل منهما صفة حقيقية ، وإلا لم يختلفا باختلاف الأحوال ، فإن الفعل الواحد قد يكون مصلحة بالنسبة لشخص مفسدة لشخص آخر ، كقتل زيد مثلا فإنه مفسدة عند

أوليا ئه ومصلحة لاعدائه •

ولو كان صفة حقيقية ما اختلف حكم هذا الفعل بالنسبة لأعدائه وأوليائـه • كما لا تختلف الصفات الحقيقية ، فكون الجسم الواحد مثلا أسود وأبيض فانه لا يختلف بالنظر الى شخصين •

والمعنيان الأول والثاني لا نزاع بين علماء الكلام أنهما عقليان يستقل العقـــــل بادراكهما •

ويرى شيخ الاسلام ابن تيمية أن القسم الاول وهو كون الفعل صفة كمال أو نقصان يرجع الى القسم الثاني ويقول في ذلك : " ومن الناس من أثبت قسما ثالثـا للحسن والقبح ،وادعى الاتفاق عليه ، وهوكون الفعل صفة كمال أوصفة نقص ،وهـذا القسم لم يذكره عامة المتقدمين المتكلمين في هذه المسألة ،ولكن ذكره بعض المتأخرين كالرازي ، وأخذه عن الفلاسفة •

والتحقيق أن هذا القسم لا يخالف الأول ،فان الكمال الذي يحصل للانسان ببعض الأفعال هو يعود الى الموافقة والمخالفة ،وهو اللذة والألم ، فالنفس تلتذ بما هو كمال لها وتتألم بالنقص ،فيعود الكمال والنقص الى الملائم والمنافي (١) •

٣) المعني الثالـث: كون الفعل يتعلق به المدح أوالذم عاجلا والثواب والعقاب آجلا كالطاعات والمعاصي •

فالحسن على هذا ما تعلق به المدح والثواب في العاجل والآجل •

والقبيح ماتعلق به الذم والعقاب في العاجل والآجل ومالا يتعلق به شيء منهما

---

(١) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ج٢ ص١٠٤

فهو خارج عن الحسن والقبيح . (١)

والحسن والقبح بهذا المعنى هو محل النزاع بين الأشاعرة ومن وافقهم والمعتزلة ومن وافقهم :

أ) فالأشاعرة نفوا أن يكون بهذا المعنى عقليا ، بمعنى أن العقل يدرك كون الفعل حسنا أوقبيحا ، لأن الأفعال كلها سواسية ليس شيء منها في نفسه بحيث تقتضي مدح فاعله وثوابه ، ولا ذمه وعقابه .

وإنما صارت أفعال المكلفين يتعلق بها المدح والثواب أو الذم والعقاب بوساطة أمر الشارع ونهيه . فما أمر به كان حسنا بمعنى : أن فاعله يمدح ويثاب على فعله . وما نهى عنه كان قبيحا ، بمعنى أن فاعله يذم ويعاقب على فعلـه .

ولو عكس الشارع الأمر فحسّن ما قبّحه وقبّح ما حسّنه كان ذلك جائزا .

فالحسن والقبح على هذا شرعيّ لا عقليّ . (٢)

ب) أما المعتزلة فقالوا ان الفعل في نفسه مع قطع النظر عن الشرع له جهة محسنة تقتضي استحقاق الفاعل مدحا وثوابا .

أو جهة مقبحة تقتضي استحقاق فاعله ذما وعقابا والعقل يمكنه ادراك الحسن والقبح في بعض الأشياء بقطع النظر عن ورود الشرع .

ولكن هل العقل عند المعتزلة حاكم مشرع للأحكام ؟

نجد هنا لبعض العلماء فهمين متعارضين :

---

(١) الايجي ، المواقف ج ٨ ص ١٨٢ ، ١٨٣ والأربعين في أصول الدين للرازي ص ٢٤٦

(٢) أبو المعالي الجويني ، الارشاد ص ٢٥٨ وشرح مطالع الأنظار على متن طوالع الأنوار ص ١٩٥

أحدهما : لصاحب " مسلّم الثبوت" فهو قد فهم أن الأشاعرة والمعتزلة متفقون على أن المشرع للأحكام هو الله تعالى •

الا أن المعتزلة قالوا ان العقل يمكنه أن يدرك بعض الأحكام كوجوب معرفة الله قبل ورود الشرع •

أما الأشاعرة فقالوا لا يمكنه ذلك • (١)

والفهم الثاني : للشريف الجرجاني :

فقد قال : " ليست الأشاعرة والمعتزلة على وفاق في أن المشرع للأحكام هو الله تعالى •

بل الأحكام ثابتة للأفعال في أنفسها عند المعتزلة والشرع يأتي مقررا لما أدركه العقل من تلك الأحكام وكاشفا عما خفي على العقل ادراكه •

فالأفعال اما حسنة في أنفسها يستحق فاعلها مدحا وثوابا ، أو قبيحة في أنفسها يستحق فاعلها ذما وعقابا •

فوجوب الفعل بمعنى استحقاق فاعله للمدح والثواب صفة لازمة للفعل •

وقالت الأشاعرة ، المشرع للأحكام هو الله تعالى فليس هناك حكم ثابت للفعل في نفسه بل الذي يحكم بالوجوب أو الحرمة ونحوهما هو الشرع •

فمن قال : ان العقل يحكم بوجوب الفعل أو حرمته عند المعتزلة فقد أخطأ ذلك أن العقل لا يحكم بوجوب ولا حرمة بل الأحكام ثابتة في نفس الأمر •

ومن قال : ان المشرع للأحكام هو الله تعالى باتفاق الأشاعرة والمعتزلة فقد أخطأ • " (٢)

---

(١) أنظر فواتح الرحموت شرح مسلّم الثبوت ج ١ ص ٢٥ (مطبوع مع المستصفى)

(٢) انظر تعليق الأستاذ الشيخ محمد يوسف الشيخ على شرح عبد السلام على الجوهرة ص ١٧

ومن هذا يتبين أن صاحب مسلم الثبوت ينفى عن المعتزلة أن يكون العقل عندهم هو المشرع للأحكام بل المشرع للأحكام هو الله تعالى .

أما الشريف الجرجانى فهو كذلك ينفى عن المعتزلة أن يكون العقل هو المشرع للأحكام . بل الأحكام من وجوب وحرمة ثابتة للأفعال فى نفس الأمر اذ هى صفات لازمة لها . أما العقل فقد يدرك بعض تلك الأحكام قبل ورود الشرع والشرع يأتى حينئذ مقررا لما أدركه العقل وكاشفا عما لم يدركه .

اختلاف المعتزلة فى جهة الحسن والقبح

تقرر عند المعتزلة أن الحسن والقبح عقليان ، وأن للأفعال فى أنفسها بقطع النظر عن الشرع جهة محسنة تقتضى مدحا وثوابا للفاعل . أو جهة مقبحة تقتضى ذما وعقابا .

ولكنهم اختلفوا فى هذه الجهة :

فالأوائل منهم على أن حسن الأفعال وقبحها لذواتها لا لصفات فيها تقتضى الحسن والقبح .

وذهب بعض المعتزلة الى أن فى الفعل صفة حقيقية توجب حسنه أوقبحه .

أما ابوالحسين البصري من متأخريهم فقد ذهب الى اثبات صفة فى القبيح تقتضى قبحه دون الحسن ، اذ يكفى فى حسن الفعل عنده انتفاء الصفة المقبحة .

وذهب أبو علي الجبائي الى أن حسن الأفعال وقبحها ليس لصفات حقيقية ، وانما لوجوه اعتبارية وأوصاف اضافية تختلف بحسب الاعتبار كما فى لطمة اليتيم فانها باعتبار كونها للتأديب حسنة ، وباعتبار كونها ظلما قبيحة . (١)

---

(١) الايجى ، المواقف جـ٨ ص ١٨٤ مطبوع مع الشرح للجرجانى

الا أن جهة الحسن والقبح عند المعتزلة ليست على درجة واحدة في ادراك العقل لهـا . بل منها :

أ — ما يدرك ضرورة أي بدون حاجة الى النظر كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار .

ب — ومنها مايحتاج في ادراكه الى النظر كحسن الصدق الضار وقبح الكذب النافع .

جـ — ومنها ما لا يدرك بالعقل ضرورة ولا نظراً ، ولكن اذا ورد الشرع بالأمر بـه علم أن هناك جهة محسنة كما في صوم آخر يوم من رمضان حيث أوجبه الشارع .

واذا ورد الشرع بالنهي عنه علم أن هناك جهة مقبحة كصوم أول يوم من شوال حيث نهى الشارع عنه .

فالشرع لم يحط (الصوم) حسنا ليس له ، ولا قبحا ليس له ، وانما هو كاشف عن الحسن والقبح فقط .

وادراك الحسن والقبح في هذا النوع متوقف على كشف الشرع عنهما بخلاف القسمين الأولين — ما أدركه العقل بالضرورة أو بالنظر — فالشرع يأتي مؤيـدا لما أدركه العقل من حسن أو قبح . (١)

ثمرة الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة

في الحسن والقبح العقليين

رتب المعتزلة على القول بالحسن والقبح العقليين أن الانسان مكلف قبل ورود الشرع بما دل عليه العقل كوجوب شكر المنعم ، ومكلف بمحاسن الأخلاق .

---

(١) الايجي ، المواقف جـ ٨ ص ١٨٣

كما بنى المعتزلة على القول بالحسن والقبح الذاتيين للفعل وجوب بعض الأمور على الله تعالى ، لأن تركها قبيح ومخل بالحكمة ، ومن ذلك وجوب الصلاح والأصلح للعباد ووجوب اللطف والثواب للمطيع والعقاب للعاصي وغير ذلك .

قال الشهرستاني : " وقال أهل العدل (١) : المعارف كلها معقولة بالعقل واجبة بنظر العقل ، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبح صفتان ذاتيتان للقبيح . "

كما حكى عن أبي الهذيل العلاف قوله أنه يجب على المكلف أن يعرف الله تعالى بالدليل من غير خاطر (٢) وإن قصّر في المعرفة استوجب العقوبة . كما يجب عليه أن يعلم حسن الحسن وقبح القبيح ، فيجب عليه الالتزام بالحسن كالصدق والعدل ، والاعراض عن القبيح كالكذب والجور . (٣)

أما الأشاعرة فلا يرون وجوب شيء على المكلف ، ولا حرمة شيء عليه قبل ورود الشرع لأن الحسن والقبح تابعان لأمر الشارع ونهيه . كما يرون أنه لو عكس الشارع القضية فقبّح ما حسنه وحسّن ما قبّحه جاز .

واليك ما قاله امام الحرمين الجويني في هذا المقام

" العقل لا يدل على حسن شيء ولا قبحه في حكم التكليف ، وانما يتلقى التحسين والتقبيح من موارد الشرع وموجب السمع .

وأصل القول في ذلك أن الشيء لا يحسن لنفسه وجنسه وصفة لازمة له ، وكذلك القول فيما يقبح ، وقد يحسن في الشرع ما يقبح مثله المساوي له .

---

(١) أهل العدل : المقصود بهم المعتزلة
(٢) يقصد وان لم يرد شرع بهذا الوجوب
(٣) الشهرستاني ، الملل والنحل ج ١ ص ٥٢

فاذا ثبت أن الحسن والقبح عند أهل الحق لا يرجعان الى جنس وصفة نفس ، فالمعنى " بالحسن ما ورد الشرع بالثناء على فاعله ، والمراد بالقبيح ما ورد الشرع بذم فاعله " (١) .

الفصل الثاني

تحديد مفهوم الحسن والقبح عند السلف

هناك فريق وسط بين الاشاعرة والمعتزلة وهم السلف ، واليك توضيح مفهوم الحسن والقبح عندهم :

معنى كون الفعل حسنا لذاته أو قبيحا لذاته أو لصفته أنه في نفسه منشأ المصلحة والمفسدة ، وترتبهما عليه كترتب المسببات على أسبابها المقتضية لها ، مثل ترتب الري على الشرب ، والشبع على الاكل ، وترتب منافع الاغذية والادوية ومضارها عليها .

وليس معنى كون الفعل حسنا أو قبيحا لذاته أو لصفته أن الحسن والقبح يقومان به وهما لازمان له ، لا ينفكان عنه ، مثل كون الفعل عرضا ، وكونه مفتقرا الى محل يقوم به .

واذا كان الامر كما ذكرنا فقد يترتب الثواب على الفعل في بعض الاوقات دون بعض ، وقد يكون الفعل حسنا في مكان وقبيحا في مكان آخر فتخلف المسبب عن سببه لوجود معارض لا يخرجه عن كونه مقتضيا للمسبب عند عدم المعارض .

الا ترى أن الاكل مثلا لا يخرجه عن كونه مقتضيا للشبع عدم تحقق الشبع عند بعض الناس لمرض أو نحوه .

---

(١) الجويني ، الارشاد ص ٢٥٨

والدواء لا يخرجه عن كونه مقتضيا لأثره تخلف الأثر عند بعض الناس .

ومن هنا لما كانت المصالح تختلف بحسب الأوقات والأشخاص والأحوال جاءت الشرائع مراعية لذلك . فكان نكاح الأخت حسنا فى وقت مست الحاجة فيه الى ذلك تكثيرا للنسل ، وكان قبيحا حين لم تكن تلك الحاجة الداعية اليه . فلما استغنى عنه حرمه الشارع على عباده .

والقاعدة عند تزاحم المصالح تحصيلها وعدم تفويت بعضها بقدر الامكان ، فان تعذر ذلك قدمت المصلحة العظمى وان فاتت الصغرى .

واذا تأملت الشريعة والخلق رأيت ذلك واضحا .

والحاصل : أن معنى كون الفعل يقتضى للحسن والقبح لذاته أو لوصفه اللازم له : أن الحسن ينشأ من ذاته أو من وصفه بشرط معين .

والقبح ينشأ من ذاته أو من وصفه بشرط آخر .

فاذا عدم شرط الاقتضاء أو وجد مانع يمنع الاقتضاء زال الأمر المترتب بحسب الذات أو الوصف لزوال شرطه أو لوجود مانعه . (١)

وبهذا يعتبر السلف من القائلين بالحسن والقبح العقليين وأن بعض الأشياء حسنة فى نفسها وبعض الأشياء قبيحة فى نفسها بالمعنى المتقدم ، ولكن لا يوجبون شيئا على المكلف قبل ورود الشرع والثواب والعقاب عندهم متوقف على بعثة الرسل كما قال تعالى " وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا " (٢)

فهم بهذا كانوا وسطا بين الأشاعرة والمعتزلة .

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٢٨ ، ٢٩

(٢) سورة الاسراء آية ١٥

يقول الامام ابن القيم :"وتحقيق القول في هذا الاصل العظيم أن القبح ثابت في الفعل في نفسه ، وأنه لا يعذب الله عليه الا بعد اقامة الحجة بالرسالة" (١) .

ويقول : " والحق الذي لايجد التناقض اليه السبيل أن الافعال في نفسها حسنة وقبيحة كما أنها نافعة وضارة ، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب الا بالامر والنهي ، وقبل ورود الامر والنهي لا يكون العمل القبيح موجبا للعقاب مع قبحه في نفسه بل هو في غاية القبح ، والله لا يعاقب عليه الا بعد ارسال الرسل ، فالسجود للشيطان ، والاوثان ، والكذب والزنا والظلم والفواحش كلها قبيحة في ذاتها ، والعقاب عليها مشروط بالشرع" (٢) .

الفصل الثالث

رأى الماتريدية في الحسن والقبح

لقد اشتهر أن الماتريدية يتفقون مع المعتزلة في القول بالحسن والقبح العقليين في الافعال مخالفين بذلك الاشاعرة الذين ينفونهما . (٣)

ولكننا اذا نظرنا الى ماجاء في المسامرة شرح المسايرة للكمال بن الهمام نجد الفرق واضحا بين رأى المعتزلة والماتريدية . فبينما الكل متفقون على اثبات الحسن والقبح العقليين نجد أن المعتزلة يرون أنه بمقتضى ادراك العقل للحسن والقبح يجزم بأن حكم الله تعالى في الفعل الايجاب أو التحريم ولا يتوقف ذلك على ورود الشرع .

---

(١) ابن القيم مفتاح دار السعادة ج ٢ ص٧

(٢) ابن القيم ، مدارج السالكين ج ١ ص١٢٧

(٣) لقد جزم الاستاذ الشيخ محمد يوسف الشيخ باتفاق مذهبي المعتزلة والماتريدية في الحسن والقبح العقليين في تعليقه على شرح عبد السلام على الجوهرة ص١٧

أما اذا عجز العقل عن ادراك الحسن والقبح فان الشرع يأتي كاشفا عنهما •

أما الحنفية (١) فانهم مع قولهم بالحسن والقبح العقليين كالمعتزلة الا أنهم اختلفوا فيما بينهم ، هل يعقل حكم الله تعالى في الفعل بمجرد ادراك العقل للحسن والقبح أو يتوقف ذلك على ورود الشرع •

فقال أبو منصور الماتريدى وعامة مشايخ سمرقند : يعلم حكم الله تعالى في بعض الأفعال دون بعض كوجوب الايمان بالله وتعظيمه ،وحرمة نسبة ما هو شنيع اليه كالكذب والسفه ، ووجوب تصديق النبي عليه الصلاة والسلام وهذا هو معنى شكر المنعم ، فعند هؤلاء يجب الايمان بالله ولو لم يبعث رسول •

وقال غير هؤلاء من الحنفية وهم أئمة بخارى : لا يقضى العقل بمقتضى ما أدركه من حسن أو قبح بوجوب ولا حرمة في شيء من الأحكام الا بعد ورود الشرع • " وبنوا ذلك على أن الله تعالى لا يحتاج الى الطاعة ويستكثر بها ،ولا يتضرر بالمعصية ، ولا يأخذه حنق حتى يتشفى بالعقاب ،فلا يمتنع عقلا ألا يكلف عباده بمقتضى ما تدركه عقولهم من حسن أو قبح في الأفعال •

فلنفيهم أن يرجع الى الله من طاعة عبده أو معصيته شيء نفوا ترتب الوجوب والحرمة على الحسن والقبح العقليين" •(٢)

ومن المسلم به : أنه سبحانه لا يتضرر بمعصية ،ولا ينتفع بطاعة ، الا أنه سبحانه يحب من عبده الطاعة ويكره منه المعصية كما قال تعالى " ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم " (٣) •

---

(١) الحنفية : المقصود بهم الماتريدية أتباع أبى منصور محمد بن محمد الماتريدى/ المتوفى سنة ٣٣٢

(٢) انظر المسامرة بشرح المسايرة للكمال بن أبى شريف ص ١٦١

(٣) سورة الزمر آية ٧

ولكنه لا يرتب مقتضى الحسن والقبح عليهما الاّ بعد مجئ الرسل تفضلا منه تعالى واقامة للحجة على عباده •

وبهذا يتضح الفرق بين رأى السلف ورأى أئمة بخارى من الحنفية •

أما الفرق بين رأي أئمة بخاري ورأى الأشاعرة فواضح •

اذ الأشاعرة ينفون الحسن والقبح العقليين وهؤلاء يثبتونهما •

غير أنهم يوافقون الأشاعرة فى عدم الوجوب والحرمة قبل ورود الشرع •

والحنفية مع اختلافهم هذا متفقون على نفى وجوب ما أوجبه المعتزلة على الله تفريعا على قولهم بالحسن والقبح العقليين •

فلا يقولون بوجوب الصلاح والأصلح واللطف والثواب على الطاعة والعقاب على المعصية وغير ذلك مما أوجبه المعتزلة • وذلك لأن الحنفية منعوا أن تكون مقابلات هذه الأمور منافى للحكمة •

وقالوا : " ماورد به السمع من وعد الرزق ووعد الثواب على الطاعة وغير ذلك مما وعد به هو محض فضل منه تعالى دون وجوب عليه عز وجل ولابد من حصوله لوعده الصادق به • (١)

وخلاصة القول : أن الماتريدية يوافقون المعتزلة فى اثبات الحسن والقبح الذاتيين للأفعال ، وأن العقل يدرك الحسن والقبح ، فى بعض الأفعال • فيدرك القبح المناسب لترتب حكم الله تعالى بالمنع من الفعل على وجه ينتهض معه الاتيان بذلك الفعل سببا للعقاب ويدرك الحسن المناسب لترتب حكمه تعالى فيه بالايجاب والثواب على فعله والعقاب على تركه •

---

(١) انظر المسامرة بشرح المسايرة للكمال بن أبى شريف ص ١٥٥

الا أن أئمة بخارى وان اثبتوا الحسن والقبح العقليين متفقون مع الاشاعرة في أنه لا يجب ايمان ولا يحرم كفر قبل البعثة ٠

كما أن جميع الماتريدية : يخالفون المعتزلة في وجوب الصلاح واللطف وغيرها من الأمور التى أوجبها المعتزلة على الله تفريعا على قولهم بالحسن والقبح العقليين ٠

الفصل الرابع
الأدلة

أولا : أدلة مثبتى الحسن والقبح العقليين :

بعد أن تقرر مذهب المعتزلة والماتريدية والسلف في قولهم بالحسن والقبح العقليين ٠ نورد الأدلة التى استدلوا بها على ذلك من عقلية ونقلية وهى :

١ ـ الدليل الأول :

أن الناس جميعا يجزمون بقبح الكذب الضار والظلم وعبادة غير الله وقتل الأنبياء ٠ كما يجزمون بحسن الصدق والعدل والايمان ونصرة الأنبياء ٠

وليس مرد ذلك الجزم منهم بالحسن والقبح الى الشرع اذ يقول به غير أهل الشرائع ومن لا يتدين بدين أصلا كالبراهمة بل جميع الأمم متفقون على ذلك(١) ٠

٢ ـ الدليل الثانى :

أن من عنّ له تحصيل غرض من الأغراض واستوى في تحصيل هذا الغرض طريق الصدق وطريق الكذب فانه يؤثر الصدق قطعا بلا تردد ، فدل ذلك على أن حسن الصدق مركوز في العقل والا لما اختاره ٠ وكذا من رأى شخصا قد أشرف على الهلاك بغرق ونحوه وهو قادر على انقاذه مال الى انقاذه

---

(١) الايجى ، المواقف ج ٨ ص ١٩٢

قطعا وبذل جهده

/وان لم يرج من ورائه مدحا ولا ثوابا كما ان كان المنقذ طفلا أو حيوانا وليس في المكان أحد يراه ،ولا يتصور فيه غرضا من جلب نفع أودفع ضر ، بل قد يتضرر في سبيل ذلك بتعب ومشقة ، فلم يبق هناك من حامل له على هذا سوى كون الانقاذ حسنا في نفسه • (١)

٣ ـ الدليل الثالث :

أن الشرائع السماوية مغروز حسنها في العقول ، واذا تأملت فيما شرع الله من العبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج وجدت حسنها مما تشهد به الفطرة وتقربه العقول لما اشتملت عليه من حكم جليلة ومصالح جمّة •

وشريعة الاسلام قد اشتملت على محاسن بحيث لا يتصور في العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد هذه الشريعة • (٢)

٤ ـ الدليل الرابع :

اذا تأملنا الفرق بين ما أباحه الله لنا وبين ما حرمه علينا من أنواع المطاعم والمشارب والملابس والمناكح نجد الفرق واضحا بين ما أحله وما حرمه • حيث حرم القبيح والخبيث والضار ، وأباح الحسن والطيب والنافع •

فاذا نظرنا في المناكح : نجد أن من المستقر في العقول أن قضاء الوطر في الأمهات والجدات والبنات والأخوات مستقبح مستهجن ، ويستحيل أن يكون المباح منه وهو نكاح الأجنبية مساويا للمحظور في نفس الأمر • فكيف يكون نكاح الأجنبية واستفراشها مساويا لنكاح الأم واستفراشها في نفس الأمر ؟

(١) الايجي ، المواقف ج ٨ ص١٩٣
(٢) ابن القيم ،مفتاح دار السعادة ج٢ ص٢

وأيضا من المحال أن يتساوى الدم والبول والرجيع مع الماء واللبن والخبز في نفس الأمر وانما الذى فرق بينهما هو مجرد أمر الشارع • (١)

٥ — الدليل الخامس :

آيات من القرآن الكريم تدل على أن الحسن والقبح ثابتان للأشياء في أنفسها ، وهذه الآيات هى :

أ) قوله تعالى " يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث " (٢) •

ب) وقوله تعالى : قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون " (٣) •

جـ) وقوله تعالى " ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا " (٤) •

ووجه الدلالة من الآية الأولى :

أن المعروف الذى يأمرهم به هو ما تعرف العقول حسنه ، وتقر بحسنه الفطر السليمة • وأن المنكر الذى ينهاهم عنه هو ما تنكره العقول وتقرّ بقبحه •

ولو كان الحسن هو ما أمر به الشرع ، والقبيح ما نهى عنه لكان معنى الآية يأمرهم بما يأمرهم به ، وينهاهم عما ينهاهم عنه ، وهذا كلام لا يقوله عاقل فضلا عن رب العالمين •

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج٢ ص٥
(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧
(٣) " " " ٣٣
(٤) سورة الاسراء آية ٣٢

نعم : ان الطيب اذا أحل من الشارع فقد اكتسب طيبا آخر الى طيبه فصار طيبا من الوجهين معا • وكذلك القبيح اذا نهى الشارع عنه أكتسب قبحا الى قبحه فصار قبيحا من الوجهين معا • (١)

٢ ـ أما وجه الدلالة من الآية الثانية وهى قوله تعالى : " قل انما حرم ربى الفواحش " الآية • فهو أنها تدل أيضا على أن الفواحش فواحش فى نفسها وقد تعلق التحريم بها لفحشها ، لأن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له ، فدل على أنه حرّمها لكونها فواحش •

والعلة لابد أن تكون مغايرة للمعلول فلو كان كونها فاحشة هو معنى كونها محرمة كانت العلة عين المعلول وهذا باطل •

وكذلك تحريم الاثم والبغى يدل على أن هذا وصف ثابت لهما قبل التحريم • (٢)

٣ ـ أما وجه الدلالة من الآية الثالثة وهى قوله تعالى " ولا تقربوا الزنى " الآية فهى تدل على أن الزنى انما تعلق به النهى والتحريم لكونه فاحشة.

فهذا الوصف ثابت له قبل النهى عنه • ولو لم يكن فاحشة فى نفسه لما صح هذا التعبير • اذ يكون معنى الآية : ولا تقربوا الزنى فانه منهى عنه وهذا من تعليل الشىء بنفسه وهو باطل • (٣)

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٦ ، ومدارج السالكين ج ١ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥

(٢) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٧

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧

٦ ـ الدليل السادس : انكار الله سبحانه وتعالى على من نسب الى حكمته التسوية بين المختلفين كالتسوية بين الأبرار والفجار كما قال تعالى :

" أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ." (١)

وقال تعالى : " أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون " (٢) .

فأخبر تعالى أن هذه التسوية حكم سيء وقبيح يتنزه الله عنه ، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه لا يكون فحسب . وانما أنكره من جهة قبحه في نفسه ، وأنه حكم جائر لا يليق بعدله وحكمته .

فدل ذلك على أنه قبيح في نفسه يتنزه الله عن فعله . (٣)

ثانيا - أدلة نفاة الحسن والقبح العقليين والجواب عنها

استدل الأشاعرة على نفي الحسن والقبح العقليين بالتالي :

الدليل الأول : أن العبد مجبور على فعله ، واذا كان كذلك فلا يتصور الحسن والقبح العقليان حينئذ في فعله ، لأن ما ليس بفعل اختياري لا يكون حسنا ولا قبيحا عقلا بالاتفاق . من النفاة والمثبتين للحسن والقبح العقليين .

أما بيان كونه غير اختياري :

فلأنه ان لم يتمكن من الترك فذاك هو الجبر .

وان تمكن من الفعل والترك كان الفعل جائزا .

---

(١) سورة ص آية ٢٨
(٢) سورة الجاثية آية ٢١
(٣) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ١١ ، ١٢

وحينئذ اما أن يفتقر ترجيح الفعل على الترك الى مرجح أو لا ؟ فان لم يفتقر كان اتفاقيا فلا يوصف بالحسن والقبح •

وان افتقر الى مرجح فذلك المرجح ان كان من العبد احتاج ذلك المرجح الى مرجح آخر فيلزم التسلسل وهو محال •

وان كان المرجح من غير العبد كان اضطراريا • وعلى التقارير كلها — أى امتناع الترك وكون الفعل اتفاقيا أو اضطراريا — لا يكون العبد مختارا فى فعله بل هو مجبور ، فلا يتصف شئ من أفعاله بالحسن والقبح العقليين • (١)

وقد أجيب عن هذا الدليل : بأن فيه التسوية بين الحركة الضرورية والاختيارية من العبد وعدم التفريق بينهما ، وهذا باطل ، لأنه مخالف لما يقضى به الواقع والحس والشرع • فهذا الدليل فى مقابلة ما تقضى به الضرورة فلا يلتفت اليه •

ثم انه لو صح الدليل المذكور لزم منه أن يكون الله تعالى غير مختار فى فعله ، لأن التقسيم المذكور فى هذا الدليل جار فى أفعاله تعالى • وهذا كاف لبطلان هذا الدليل •

كما أنه يلزم من هذا الدليل بطلان الحسن والقبح الشرعيين ، وذلك لأن فعل العبد ضرورى ، أو اتفاقى ، وما كان كذلك فان الشرع لا يحسنه ولا يقبحه لأنه لا يرد بالتكليف به فضلا عن أن يجعله متعلق الحسن والقبح •

ثم انه اذا كان المرجح من الله تعالى لم يلزم من ذلك أن يكون الفعل اضطراريا فان الله يحبب للعبد الفعل فيفعله باختياره كما قال تعالى " ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم " (٢) •

---

(١) الجرجانى ، شرح المواقف ج ٨ ص ١٨٥ ، ١٨٦ وشرح المقاصد للتفتازانى ج ٢ ص ١٤٩

(٢) سورة الحجرات آية ٧

كذلك اذا زين للعاصى عصيانه فان معصية العبد باختياره فالتحبيب للطاعة والتزيين للمعاصى لم يسلبا العبد اختياره حتى يكون فعله اضطراريا •

واذا كان فعل العبد اضطراريا فانه يلزم من ذلك بطلان الشرائع والتكاليف لأن التكليف انما يكون بالأفعال الاختيارية • اذ يستحيل أن يكلف المرتعش بحركة يده • (١)

الدليـــل الثانـــــى :

لو كان قبح الكذب بالذات أو لصفة لازمة للذات لكان كلما وجد الكذب وجد القبح ، لأن ما بالذات وما هو بواسطة أمر لازم للذات يجب أن يكون مادامت الذات واللازم باطل •

فان الكذب قد يحسن فى بعض الأحيان كما اذا كان يترتب عليه عصمة دم نبى من ظالم ، فالكذب حينئذ حسن بل واجب لأنه ردّ للظلم بحيث لو تركه كان تركه قبيحا ، وكذلك يحسن الكذب بل يجب اذا كان فيه انجاء متوعد بالقتل ظلما " (٢) •

وقد أجيب عن هذا الدليل : بأن الكذب قبيح فى جميع صوره وأما الذى يحسن فالتعريض والتورية •ومن ثمت قيل : ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب فالكذب ليس متعينا لردع الظالم ، واذا لم يتعين كان الاتيان به قبيحا لا حسنا •

ويجاب أيضا بأن تخلف القبح عن الكذب لفوات شرط أو قيام مانع لا يخرجه عن كونه قبيحا لذاته ، والله سبحانه حرم الميتة للمفسدة التى فى تناولها وهى ناشئة من ذاتها ولكن يباح تناولها للمضطر فتخلف التحريم عنها عند الضرورة لا يوجب

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، ج ٢ ص ٢٥
(٢) الجرجانى ، شرح المواقف ج ٨ ص ١٩٠

أن تكون ذاتها غير مقتضية للمفسدة التى حرمت لأجلها ، فهكذا الكذب المتضمن نجاة نبى أو مسلم .

ثم ان هذا الدليل لا يرد على الجبائية القائلين بأن الحسن والقبح يرجعان الى وجوه واعتبارات . اذ يكون الكذب حينئذ قبيحا باعتبار تعلقه بالمخبر عنه لا على ما هو به . وحسنا باعتبار استلزامه لانجاء مظلوم . (١)

الدليل الثالث :

وهو الذى اعتمد عليه الآمدى فى نفى الحسن والقبح العقليين وفحواه : أن حسن الفعل لو كان أمرا زائدا على ذاته لزم قيام المعنى الذى هو الحسن بالمعنى الذى هو الفعل وقيام العرض بالعرض باطل .

وقد أجيب عن ذلك : أن كثيرا من المعانى يوصف بالمعانى كما يقال : علم ضرورى ، وعلم كسبى ، وارادة جازمة وحركة بطيئة وحركة سريعة الى غير ذلك مما لا يحصى .

ثم انه لا يلزم من كون الحسن أمرا زائدا على ذات الشيء قيام المعنى بالمعنى بل اللازم : هو وصف المعنى بالمعنى .

ويقوم أحد المعنيين بالآخر تبعا لقيام الآخر بالجوهر الذى هو المحل ، والمعنيان جميعا قائمان بالمحل وأحدهما تابع للآخر ، وكلاهما تابع للمحل .

فلم يقم عرض بعرض ، وانما قام العرضان جميعا بالمحل فالحركة والسرعة مثلا قائمتان بالمتحرك . والارادة والجزم قائمان بالمريد .

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج٢ ص ٣٦ ، ٣٧ .

فالمستحيل أن يقوم معنى بمعنى من غير أن يكون لهما حامل ، فاذا كان لهما حامل وأحدهما صفة للآخر وكل منهما قام بالمحل فلا استحالة فى ذلك .

وأيضا لو صح الدليل المذكور لزم أن لا يوصف الفعل بالحسن والقبح شرعا اذ يلزم عليه أن يقوم المعنى بالمعنى ، ولا خلاص عن هذا الا بالتزام أن يكون الحسن والقبح الشرعيان عدميين ، بخلاف الحسن والقبح العقليين ولا سبيل الى ذلك . فقد رتب الشارع الثواب والعقاب ، والمدح والذم عليهما ترتب المقتضى على مقتضيه والاثر على موءثره . وماكان كذلك لم يكن عدما محضا اذ العدم المحض لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ولا مدح ولا ذم . (١)

وهناك أدلة أخرى ضعيفة باعتراف النفاة ولا بأس بذكر بعضها . وهو :

— من قال لأكذبن غدا وجاء الغد وكذب ، فهذا الكذب اما حسن فلا يكون الكذب قبيحا لذاته واما قبيح فهذا القبيح تركه حسن مع أن تركه يستلزم كذبه فيما قاله أمس ، ومستلزم القبيح قبيح ، فيلزم من هذا أن يكون الترك حسنا وقبيحا معا ، وهو باطل .

فتعين ألا يكون قبح الكذب ذاتيا لانقلابه حسنا وهو المطلوب .

<u>والجواب عن ذلك هو</u> : أنا لا نسلم أن مستلزم القبيح قبيح ، فقد يكون الفعل حسنا لذاته مستلزما قبيحا فيكون باعتبار ذاته حسنا ، وباعتبار ما استلزمه قبيحا . فالكلام الواحد ، باعتبار أنه مطابق للمخبر عنه حسن ، ومن حيث استلزامه للقبيح الذى هو الكذب فيما قاله أمس يكون قبيحا ، واذا فهذا الدليل لايصلح ردا على الجبائية القائلين بأن الحسن والقبح العقليين لوجوه اعتباريه تختلف بحسب الاعتبار .

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٢٧ ، ٢٨

وقد يجاب بالتزام قبح كلام هذا الحالف فى الغد مطلقا لانه حينئذ يكون قبيحا ، أما لذاته ان كان كذبا أو لاستلزامه القبيح ان كان صدقا •

ويقال : ان الكلام الصادق انما يحسن اذا لم يستلزم القبيح • (١)

النتيجـــــــــــــــــة

يظهر مما تقدم أن مذهب السلف فى الحسن والقبح العقليين وسط بين مذهبى المعتزلة والاشاعرة ، وبيان ذلك:

١ — أنهم وان كانوا يوافقون المعتزلة فى القول بادراك العقل للحسن والقبح فى بعض الافعال الا أنهم لا يوافقونهم على وجوب الفعل وحرمته بمعنى استحقاق الفاعل الثواب والعقاب قبل ورود الشرع ، لقوله تعالى " وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا " (٢) ، ففارق بذلك مذهب السلف مذهب المعتزلة •

٢ — كما أنهم يوافقون الاشاعرة فى أنه لا ثواب ولاعقاب الا بعد ورود الشرع • ولكن لا يوافقونهم على أن الافعال فى أنفسها سواء ، وان لا فرق بينهما فى نفس الامر ، بل الشرع هو الذى يحسنها أويقبحها ، ولو عكس الشارع الامر جاز • كل هذا لا يوافق عليه السلف بل يذهبون الى أن الحسن والقبح ثابتان للافعال فى أنفسها ، وأن الله سبحانه فطر العباد على استحسان الصدق والعدل والاحسان ، ومقابلة المنعم بالشكر • كمافطرهم على استقباح أضداد هذه الافعال ، وبذا فارقوا مذهب الاشاعرة فسلم مذهب السلف من الطعن الوارد على كل من المذهبين ووافق الصواب من كل منهما •

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٣٧

(٢) سورة الاسراء آية ١٥

الفصل الخامس

هل يجب على الله تعالى شيء ؟

سبقت الاشارة الى أن المعتزلة بناء منهم على القول بالحسن والقبح العقليين أوجبوا على الله تعالى أمورا . كالصلاح واللطف .

وأن الأشاعرة والسلف والماتريدية منعوا أن تكون واجبة عليه .

ويحسن بنا أن نعرض هذه المسألة بتفصيل أكثر . ولنبدأ بذكر معاني الوجوب :

معنى الوجوب

تستعمل كلمة (وجب) في اللغة بمعنى سقط ، والواجب بمعنى الساقط ، ومنه قوله تعالى " فاذا وجبت جنوبها "(١) أى سقطت على الأرض .

كما تستعمل بمعنى لزم . قال في القاموس :

" وجب يجب وجوبا وجبة لزم ثم قال واستوجبه استحقه ، والوجيبة الوظيفة ، ووجب يجب وجيبة سقط " (٢)

ويطلق واجب الوجود على الله تعالى . ونلاحظ أن معاني الوجوب المذكورة تدور حول اللزوم ، أى أن الواجب هو اللازم ، لأن الدابة اذا سقطت مذبوحة فانها تلزم الأرض .

وكذلك الوجيبة بمعنى الوظيفة فيها معنى اللزوم . أما استوجبه بمعنى استحقه فظاهر فيه معنى اللزوم أى لزم له هذا الحق وتعين أداؤه له .

(١) سورة الحج آية ٣٦

(٢) الفيروزآبادى ، القاموس المحيط ج ١ ص ١٤١

اذا فالوجوب بمعنى اللزوم ، والواجب هو اللازم •

المراد بالوجوب فى حق الله :

فاذا قيل يجب على الله تعالى شىء فاما أن يراد بالواجب

أولا : مايستحق تاركه الذم •

ثانيا : أو ما يكون تركه مخلا بالحكمة ، فيكون لازما لاقتضاء الحكمة اياه •

ثالثا : أو هو عبارة عما قدر الله تعالى على نفسه أن يفعله ولا يتركه ،وان كان تركه جائزا •

والتعريفان : الأول والثانى ينسبان للمعتزلة • والتعريف الثالث اختيار بعض المتكلمين •

هذا ما ذكره الجلال الدوانى فى معانى الواجب (١) • أما الآمدى فقد ذكر معانى الواجب فقال :

" ثم ان الواجب قد يطلق على الساقط •••

وقد يطلق على ما يلحق بتاركه ضرر ••

وقد يطلق على ما يلزم من فرض عدمه المحال " (٢) •

والمقصود بما يلزم من فرض عدمه المحال • هو ما علم الله وقوعه فيقال وقوعه واجب بمعنى أنه ان لم يقع يؤدى الى أن ينقلب العلم جهلا وذلك محال فيكون معنى وجوبه أن ضده محال (٣) •

---

(١) الجلال الدوانى ، شرح العقائد العضدية المطبوع مع حاشية الكلنبوى ص١٨٦

(٢) الآمدى ،غاية المرام ص٢٢٩

(٣) الغزالى ، الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٦٩

رأى الاشاعــــرة فى مسألة الوجوب فى حق الله :

ذهبت الاشاعرة الى أن الله تعالى لا يجب عليه شئ لأنه المالك على الاطلاق ، وله التصرف فى ملكه كيف يشاء • واليك ما قاله الجلال الدوانى فى ابطال معانى الوجوب الثلاثة فى حقه تعالى (١) :

" والأول باطل ، لأنه تعالى المالك على الاطلاق وله التصرف فى ملكه كيف يشاء فلا يتوجه اليه الذم أصلا على ترك فعل من الأفعال بل هو المحمود فى كل أفعاله •

وكذا الثاني لأنا نعلم اجمالا أن جميع أفعاله تتضمن الحكم والمصالح ولا يحيط علمنا بحكمته ومصلحته على أن التزام رعاية الحكمة والمصلحة مما لا يجب عليه تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون •

وكذا الثالث : لأنه ان قيل بامتناع صدور خلافه عنه تعالى فهو ينافى ما صرح به فى تعريفه من جواز الترك وان لم يقل به فات معنى الوجوب ، وحينئذ يكون محصله أن الله تعالى لا يتركه على طريق جرى العادة وذلك ليس من الوجوب فى شئ بل يكون اطلاق الوجوب عليه مجرد اصطلاح •" (٢)

وبهذا نرى أن الاشاعرة يمنعون وجوب شئ فى حقه تعالى عقلا لأنه المالك المتصرف على الاطلاق • (٣)

---

(١) وهى كما أوردنا ذكرها آنفا نقلا عن الجلال الدوانى

(٢) الجلال الدوانى ، شرحه على العقائد العضدية ج٢ ص١٨٦ — ١٨٩

(٣) مع نفى الاشاعرة أن يجب على الله شئ فقد صرح عبد الحكيم السيالكوتى فى حاشيته على شرح النسفية ج ٢ ص ١٦٠ بأنه يجب على الله رعاية مطلق الحكم ونص عبارته فى ذلك •

رأى المعتزلـــــــة :

أما المعتزلة فقد ذهبوا الى القول بوجوب بعض الأفعال على الله وعدوا ذلك من أمور العدل •

ويقول القاضى عبد الجبار فى ذلك :

" وأما علوم العدل فهو أن يعلم أن أفعال الله تعالى كلها حسنة ، وأنه لا يفعل القبيح ، ولا يخل بما هو واجب عليه ، وأنه لا يكذب فى خبره ، ولا يجور فى حكمه " (١) •

فهم يرون وجوب ما حكم العقل بحسنه على الله تعالى بمعنى أنه يستحق على تركه الذم عند العقل •

وقال متأخروا المعتزلة : ان معنى الوجوب على الله تعالى " أنه يفعله البتة ولا يتركه ، وان جاز أن يتركه " فليس كل من الفعل والترك لازما لذاته بحيث يستحيل الطرف الآخر •

وأجيب عن هذا القول من قبل الأشاعرة

" بأن الوجوب على هذا مجرد تسمية اذ يكون محصله : أن الله تعالى لا يتركه على سبيل جرى العادة •وذلك ليس من الوجوب فى شىء ، بل اطلاق الوجوب عليه مجرد اصطلاح " • (٢)

= " وأما نحن معاشر أهل السنة فلا نقول باستحالة ترك ما تقتضيه الحكمة ولا باستلزامه نقصا لجواز أن يكون فى تركها حكم ومصالح لا نطلع عليها • وان كان يجب عليه رعاية مطلق الحكم " •

(١) القاضى عبد الجبار ، شرح الأصول الخمسة ص ١٣٢

(٢) عبد الحكيم السيالكوتى ، حاشيته على شرح النسفية ج ٢ ص ١٦٠

وقال صاحب المسايرة في بيان مراد المعتزلة بالواجب على الله :

" واعلم أنهم يريدون بالواجب ما يثبت بتركه نقص بسبب ترك مقتضى قيام الداعى ، وهو هنا كمال القدرة والغنى مع انتفاء الصارف فترك المذكورة (أى ترك رعاية الأصلح للعباد) مع ذلك بخل يجب تنزيهه عنه فيجب أى لا يمكن أن يقع غيره لتعاليه عما لا يليق " . (١)

الـــرأى الراجــــح :

لقد سلك كل من المعتزلة والأشاعرة في مسألة الوجوب على الله طريقين كلاهما خطأ ، ولم يوفقوا لطريق الحق الذى هو الطريــق الوسط ، والذى دلّ عليه الكتاب والسنة وتوضيح ذلك :

١ ـ أن المعتزلة أفرطوا في تمجيد العقل حتى أوجبوا بمقتضاه على الله تعالـــى أمورا وحرموا عليه أمورا أخرى ، ووضعوا لله شريعة التعديل والتجوير ، فهـــم بذلك شبهوا الخالق بالمخلوق .

٢ ـ أما الأشاعرة فقد أخطأوا في اطلاقهم القول بنفي الوجوب في حقه تعالـــى ، فلم ينزهوه عن فعل شيء ، بناء منهم على نفي التحسين والتقبيح العقليين . وقالوا : ان الوجوب لا يتصور في حقه لأنه المالك المتصرف ولا يسئل عمـــا يفعل ، ونسوا أنه لا يسئل عما يفعل لكمال حكمته .

٣ ـ وهنا يأتي دور الفريق الوسط الذين منعوا أن يوجب العقل على الله تعالـــى شيئا ، ولكن لم يمنعوا أن يوجب الله على نفسه بعض الأمور التي يقتضيها كماله والتي أخبر أنه أوجبها على نفسه كما قال تعالى " واذا جاءك الذين يؤمنـــون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة " (٢)

---

(١) الكمال بن الهمام ، المسايرة المطبوع مع الشرح ص ١٤٢ ، ١٤٣

(٢) سورة الأنعام آية ٥٤

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
" ان الله لما قضى الخلق كتب على نفسه كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي " (١)

هذا ، ولا يلزم من كونه تعالى أوجب على نفسه بعض الأمور أن يكون فاعلا بالايجاب أي لا اختيار له ، لأنه سبحانه أوجبه على نفسه باختياره ، فاذا شاء الحسن واختاره لم يكن ذلك نافيا للاختيار ، فاختياره وارادته اقتضت التحقق بما كان حسنا على وجه اللزوم فكيف لا يكون مختارا ؟

ويبين شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله موقف السلف في مسألة الوجوب على الله حيث يقول :

" وأما الايجاب عليه سبحانه وتعالى ، والتحريم بالقياس على خلقه فهذا قول القدرية (أي المعتزلة) وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول . وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئا .

ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب قال : انه كتب على نفسه الرحمة ، وحرم الظلم على نفسه ، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق فان الله هو المنعم على العباد بكل خير فهو الخالق لهم وهو المرسل اليهم الرسل ، وهو الميسر لهم الايمان والعمل الصالح " . (٢)

---

(١) صحيح البخاري المطبوع مع فتح الباري ج ١٣ ص ٤٠٤

(٢) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٤٠٩ ، ٤١٠

الأمور التي يجب على الله أن يفعلها عند المعتزلة ومناقشتها

لقد بنى المعتزلة على قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين أن ماحكم العقل بحسنه ، وجب على الله أن يفعله وما حكم بقبحه وجب على الله أن يتركه .

لما قالوا ذلك أوجبوا على الله تعالى أمورا منها :

١) اللطف .

٢) رعاية الصلاح للعباد .

٣) الثواب على الطاعة .

٤) العقاب على المعصية .

٥) العوض عن الآلام . (١)

٦) عدم تكليف العباد ما لا يطاق .

واليك توضيح كل مسألة من المسائل المذكورة وارتباطها بالحسن والقبح عندهم . كما نذكر رأي الأشاعرة والسلف في ذلك .

---

(١) القاضي عبدالجبار ، شرح الأصول الخمسة ص١٣٣

أولا : اللطـــــــف

اللطف عند المعتزلة :

هو فعل مايقرب العبد الى الطاعة ويبعده عن المعصية بدون الجاء • كبعثة الأنبياء ، ونصب الأدلة وقد عرفه القاضى عبد الجبار بقوله. " مايختار المرء عنده واجبا ، أو يجتنب عنده قبيحا على وجه لولاه لما اختار ولما اجتنب ،أو يكون أقرب الى أداء الواجب واجتناب القبيح • (١)

وتوضيح مقصود القاضى عبد الجبار باللطف هوأن العبد المكلف أمامه واجبات يؤديها ، وقبائح يجب عليه اجتنابها فيفعل الله ما به يكون العبد أقرب الى الطاعة من غير أن يضطره هذا الفعل الى الطاعة •

وبعد أن تبين المقصود باللطف عند المعتزلة نبين رأيهم فى وجوبه فقد قالت المعتزلة بوجوبه على الله •

واستدلوا على ذلك : بأن ترك اللطف يوجب نقض غرض التكليف • وذلك لأن المكلّف اذا علم أن المكلّف لا يطيع الا باللطف فحينئذ لو كلفه بدونه يكون ناقضا لغرضه •

يقول القاضى عبد الجبار فى وجوب اللطف والدليل عليه :

" فالذى يدل على صحة ما اخترناه من المذاهب هو أنه تعالى اذا كلف المكلف وكان غرضه بذلك تعريضه الى درجة الثواب ، وعلم أن فى مقدوره مالو فعل به لاختار عنده الواجب واجتنب القبيح فلابد من أن يفعل به ذلك الفعل ، والا عاد بالنقض على غرضه •

وصار الحال فيه كالحال فى أحدنا اذا أراد من بعض أصدقائه أن يجيبه الى

---

(١) القاضى عبد الجبار ،شرح الأصول الخمسة ص ٥١٩

طعام قد اتخذه ، وعلم من حاله أنه لا يجيبه الضيف طعامه الا اذا بعث اليه بعض أعزته من ولد أو غيره ، فانه يجب عليه أن يبعث ، حتى اذا لم يفعل عاد بالنقض على غرضه ، كذلك ههنا " (١)

فلما كان نقض غرض التكليف قبيحا وجب اللطف • وقد خالف بشر بن المعتمر وأصحابه وهم معتزلة بغداد في ذلك وذهبوا الى أن اللطف لا يجب على الله تعالى ، لأنه لو وجب على الله لما وجد في العالم عاص ، لأنه ما من مكلف الا وفي مقدور الله تعالى من الالطاف ما لو فعل به لاختار الواجب واجتنب القبيح ، فلما وجد في المكلفين من عصى الله تعالى ومن أطاعه تبين أن اللطف لا يجب عليه تعالى • (٢)

وقالت الأشاعرة : ان اللطف لا يجب عليه تعالى لأن الوجوب مبني على القول بالحسن والقبح العقليين وهما باطلان •

وقالوا : لو كان اللطف واجبا ، لوجب ألا يخلوا عصر من العصور من نبي وألا يخلو بلد من معصوم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لأن ذلك يقرب من الطاعة ويبعد عن المعصية •

وهذا ليس بواجب اجماعا بدليل أنه ليس بواقع • فدل ذلك على أن اللطف ليس بواجب على الله • (٣)

---

(١) القاضي عبد الجبار ، شرح الأصول الخمسة ص ٥٢١
(٢) المصدر نفسه ص ٥٢٠
(٣) الجرجاني ، شرح المواقف ج ٨ ص ١٩٦

ثانيـــا : الصـــلاح والأصلـــــح

اشتهر عن المعتزلة قولهم بوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى .

ولتوضيح مقصودهم بذلك يقول الشهرستاني :

" واتفقوا — أي المعتزلة — على أن الله تعالى لا يفعل الا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد .

وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه عندهم خلاف، وسموا هذا النمط عدلا " (١)

كما حكى الشهرستاني عن أبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم قولهما " أن الله تعالى لم يدخر عن عباده شيئا مما علم أنه اذا فعل بهم أتوا بالطاعة والتوبة من الصلاح والأصلح واللطف ، لأنه قادر ،عالم ،جواد ،حكيم ،لا يضره الاعطاء .

وليس الأصلح هو الألذ ،بل هو الأعود في العاقبة ، والأصوب في العاجلة " .

" ولا يقال انه تعالى يقدر على شيء هو أصلح مما فعله بعبده " (٢)

ثم ان المعتزلة اختلفوا هل يجب الأصلح في الدين والدنيا أو في الدين فقط .

فقال معتزلة بغداد بالأول ، وفسروه بأنه الأوفق للحكمة . وقال معتزلة البصرة بالثاني ، فالأصلح بمعنى الأنفع في الدين ، والجبائي اعتبر الأنفع في جانب علم الله ،فأوجب ما علم الله نفعه للعبد في دينه .

وبعض معتزلة البصرة لم يعتبروا في الأصلح جانب علم الله تعالى ،بل قالوا يجب عليه تعريضه للثواب والدخول في أعلى المنزلتين ، وان علم أنه يكفر عند كونه مكلفا . (٣) .

---

(١) الشهرستاني ،الملل والنحل ج١ ص٤٥
(٢) الشهرستاني ، الملل والنحل ج ١ ص٨١ باختصار
(٣) الجلال الدواني ،شرحه على العضدية ج ٢ ص ١٩٠

رأى الاشاعـــــرة :

وقالت الاشاعرة لا يجب على الله تعالى رعاية الصلاح والأصلح ، بل له أن يفعل مايشاء ويحكم ما يريد واستدلوا على عدم وجوب رعاية الصلاح والأصلح بأدلـة منهـــا :

١ — لو كان الأصلح واجبا لكان الأصلح بحال الكافر الفقير المبتلى بالآلام والأسقام أن لا يخلق ، أو يموت طفلا أو يسلب عنه عقله بعد البلوغ ، ولم يفعل شيئـــا من ذلك بل خلقه وأبقاه حتى فعل ما يوجب خلوده في النار •

٢ — ومما يبطل دعوى المعتزلة في وجوب الأصلح ما احتج به الامام أبو الحســن الأشعرى على شيخه أبي على الجبائي المعتزلي ، حيث سأل أبو الحسن شيخه عن ثلاثة اخوة ، عاش أحدهم في الطاعة ، والثاني في المعصية ، ومات الثالث صغيرا ، فقال أبو على : يثاب الأول بالجنة ، ويعاقب الثاني بالنار ، والثالث لا يثاب ولا يعاقب •

قال الأشعرى : فان قال الثالث : يارب هلاّ عمرتني فأصلح فأدخـل الجنة كما دخلها أخي المؤمن ؟ فقال الجبائي : يقول الرب كنت أعلم أنـك لو بلغت لفسقت فدخلت النار •

قال الأشعرى : فيقول الثاني : يا رب هلاّ أمتني صغيرا لئلا أذنـب فأنجو من النار كما فعلت بأخي ؟ فبهت الجبائي ولم يحر جوابا ، وترك الأشعرى مذهب الاعتزال بسبب ذلك • (١)

فلو كان الصلاح والأصلح للعباد واجبا على الله لكان الأصلح في حق من علـم

(١) الجلال الدوانى ، شرحه على العضدية ج ٢ ص ١٩٠
والاقتصاد في الاعتقاد للغزالى ص ١٨١ ، ١٨٢

الله أنه يكفر اذا بلغ أن يميته صغيرا لكى ينجو من النار •

كما يظهر من هذه الحجة أن الأصلح بالمعنى الذى ذهب اليه معتزلة البصرة وهو تكليفه وتعريضه للنعيم المقيم ليس بواجب أيضا ، والا ما أمات الصغير قبل البلوغ ، والتكليف والتعريض للدخول فى أعلى المنزلتين •

٣ ـ ثم انه يلزم على القول بوجوب الأصلح على الله تعالى الا يكون الله مستحقا للشكر على ما أفاض على عباده من خيرات ، ولما كان له منة على أحد لأنه فعل الواجب ولما كانت منته على النبى فوق منته على غيره •

الرأى الراجح : فى مسألتى اللطف والأصلح •

والحق الذى ارتضاه السلف فى هذا هو أنه لا يجب على الله تعالى اللطف ولا رعاية الصلاح والأصلح وذلك :

لأنه لا يصح أن يوجب أحد على الله تعالى شيئا ، اذ أنه لا يقاس فعله على فعل خلقه • ولا شك أن فعله تعالى كله صلاح وخير ، وعدل ، وحكمة ، ولكنه تعالى لم يوجب على نفسه رعاية الأصلح لكل واحد من عباده •(١)

ولا شك أن الله سبحانه يفعل ما فيه صلاح العباد ونفعهم وهو اللطيف بعباده ، ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده المعتزلة • فهو يخلق عباده سليمى الحواس مزودين بالعقل ويرسل رسله لهدايتهم حتى يكونوا على بينة من الأمر •

ولكن ذلك كله تفضل منه تعالى ، وليس شىء من ذلك بواجب عليه تعالى •

والله سبحانه قادر اذا شاء أن يهدى الناس جميعا للايمان ولكن لم يشأ ذلك لحكم

---

(١) انظر منهاج السنة لابن تيمية ج ١ ص ١٧١

أحب اليه من ايمانهم كما قال تعالى " ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا " . (١)

وقال تعالى " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين " (٢) .

فبطل بذلك قول بعض المعتزلة كالجبائى " أن الله لم يدخرشيئا مما اذا فعله بالمكلفين أتوا بالطاعة ، وأنه لا يقال : انه تعالى يقدر على شىء هو أصلح مافعله بعبده . " كما نقل ذلك عنه الشهرستانى (٣) .

فكلامه هذا بعيد عن الحق ، لمخالفته لصريح القرآن الكريم ، ولنسبته العجز الى الله الذى هو على كل شىء قدير .

والحاصل : أن ايجاب شىء بعينه على الله تعالى بناء على ما أدركه العقل من حسن ، وقياسا لفعله تعالى على فعل خلقه باطل ، فالله تعالى لا يشبه فعله فعل خلقه ، فتحسن منه أفعال لا تحسن من المخلوق .

ثالثا : الثواب على الطاعة

وهو عند المعتزلة : منفعة دائمة خالصة مقرونة بالتعظيم والاجلال (٤) .

ويقول المعتزلة بوجوب اثابة المطيع على الله وذلك لسببين :

---

(١) سورة يونس آية ٩٩
(٢) سورة السجدة آية ١٣
(٣) الشهرستانى ، الملل والنحل ج ١ ص ٨١
(٤) حسن جلبى ، حاشيته على شرح المواقف ج ٨ ص ١٩٧

أ ـ لانه حق للعبد في مقابلة عمله فالاخلال به قبيح فيجب فعله .

ب ـ ولانّ التكليف اما لا لغرض ، وهو عبث وقبيح وخصوصا بالنسبة الى الحكيم . واما لغرض وحينئذ اماأن يعود الى الله وهومنزه عنه ، أو يكون عائدا الى العبد اما في الدنيافيكون مشقة بلاحظ ، واما في الآخرة ،وهو اما اضراره وهو باطل وقبيح من الجواد الكريم . واما نفعه وهوالمطلوب ، وايصا ل ذلك النفع واجب لئلا يلزم نقض الغرض . (١)

رأي الاشاعــرة :

قالوا : لا يجب عليه تعالى اثابة المطيع . وردوا على أدلة المعتزلة بأمورمنهـا :

١ ـ أن الطاعات التي كلف بها العبد انما هي للشكر على النعم التي أنعم الله بها عليه ، ولا تفي طاعات العبد بحق النعم ، فلا يكون الثواب مستحقا للعبد على ربه وانما هو تفضل منه تعالى . لكنه لا يتخلف بمقتضى وعده الكريم .

٢ ـ أن التكليف قد يكون لا لغرض ، ولا استحالة في ذلك ، وأن سلّم أن التكليف لغرض فهو ضر قوم كالكافرين ونفع آخرين كالمؤمنين . (٢)

---

(١) القاضي عبد الجبار ، المختصر في أصول الدين ص ٢٢٩ ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد

(٢) الجرجاني ، شرح المواقف ج ٨ ص ١٩٦

رابعا : العقاب على المعصية

قالت المعتزلة : يجب على الله أن يعاقب العبد على الكبيرة التى اقترفها ومات دون أن يتوب منها وحرموا عليه العفو عنه . وذلك :

١) لأن ترك عقابه يؤدى الى التسوية بين المطيع والعاصى ، ولا يخفى قبح ذلك كما يستقبح الناس أن يسوى السيد بين عبده المطيع وعبده العاصى وقد أنكر الله على من زعم التسوية بين المطيع والعاصى فقال :
" أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون " (١)

٢) لأن فى ترك العقاب على المعاصى اغراء للعصاة بالتمادى في عصيانهم ، لأن النفوس ميّالة الى فعل الشهوات القبيحة ، فاذا أمنوا العقاب أقدموا عليها . (٢)

٣) لأن الله تعالى أوعد مرتكب الكبيرة بالعقاب فلو لم يعاقبه لزم الخلف فى وعيده والكذب فى خبره وهما محالان على الله تعالى .

ومما ينبغى أن يعلم : أن المعتزلة يوجبون العقاب على المعصية بعد البعثة لئلا يلزم الكذب فى خبره تعالى أما قبل البعثة ، فقالوا : ان العبد وان استوجب بالمعصية العقوبة ، الا أن العقاب حقه تعالى فله أن ينزل عنه . لأنه سبحانه لم يحصل منه ايعاد قبل البعثة فلا يقبح العفو ، لأنه لا يستلزم خلفا فى الخبر ،

---

(١) سورة الجاثية آية ٢١
(٢) الجرجانى ، شرح المواقف ج ٨ ص ١٩٨

وانما غايته ترك حق له وليس ذلك بقبيح بل حسن . (١)

رأى الاشاعرة :

ذهب الاشاعرة الى أنه تعالى لا يجب عليه أن يعاقب على المعصية وذلك لأمور منهـا :

١) أن العقاب على المعاصى حقه فله أن يسقطه تفضلا منه تعالى على عباده، ولا يقبح ذلك .

وأما اخلاف الوعيد فجائز . اذ الكلام معه على تقدير المشيئة أى " ان شئت " .

٢) أن ترك العقاب لا يستلزم التسوية فاذا عفى سبحانه عن صاحب الكبيرة فدرجة من لم يرتكب الكبيرة فوق درجته .

٣) ليس فى ترك العقاب اغراء بالمعاصى لأن حصول العقاب على المعصية أرجح من العفو عنها ، ولا يؤدى مجرد تجويز العفو تجويزا مرجوحا الى الاغراء .

الـرأى الراجح فى مسألتى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية :

ان الحق الذى تؤيده الأدلة فى مسألة الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية هو أن الله سبحانه أحق بالوفاء بما وعد به المؤمنين من الثواب فلا يخلف وعده . قال تعالى " ومن أصدق من الله قيلا " (٢) .وقال تعالى "ما يبدل القول لدى" وما أنا بظلام للعبيد " (٣) .

---

(١) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٩٣

(٢) سورة النساء آية ١٢٢

(٣) سورة ق آية ٢٩

والكذب في حقه تعالى مما يتنزه عنه سبحانه أما الوعيد الذى توعد اللـــه به الكافرين والمشركين فسينالونه حتما وسيد خلهم الله فى نار جهنم خالد ين فيها وذلك وفق ماأخبر به عن أنه لا يغفر الشرك كما قال تعالى :

" ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ". (١)

أما صاحب الكبيرة من المؤمنين الذى مات بدون توبة من كبيرته فهو تحت المشيئة ان شاء الله عذبه وان شاء غفر له كما دلت عليه الآية السابقة :

أما قول المعتزلة ان ذلك خلف للوعيد فيكون قبيحا فيقال لهم : ليس اخلاف الوعيد قبيحا ممن هو قادر على ايقاع ماتوعد به بل يعد جودا وفضلا . وانما القبيح الذى نزه الله نفسه عنه هو خلف الوعد ، ولذا لا يجوز عليه تعالى خلف الوعـــد .

والفرق بينهما : أن الوعيد حقه ، فاخلافه عفو وهبه واسقاط لذلك الحق الذى لـــه . وذلك موجب كرمه وجوده .

أما ما أوجبه على نفسه بمقتضى وعده ، فالله لا يخلفه . واذا كان المخلوق يقبح فى حقه خلف الوعد فالله أولى بالتنزه عنه .

ويستأنس لذلك بقول الشاعر فى معرض التمدح :

وانى ان أوعدته أو وعدته .. لمخلف ايعادى ومنجز موعدى (٢)

---

(١) سورة النساء آية ٤٨

(٢) ابن القيم مدارج السالكين ج ١ص٣٩٦

المعلوم

ومن أن الله تعالى قد وعد باثابة المطيعين ، وأنه يدخلهم في جنته ، وينجيهم من عذابه ، ولا بد أن ينجز الله وعده . فقد جعل ذلك حقا عليه لعباده المؤمنين كما ورد في حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " يا معاذ ، تدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فان حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا " (١)

فقد جعل الله ذلك حقا عليه ، ولكن ذلك ليس بايجاب غيره عليه ، بل هو الذي أوجبه على نفسه تفضلا منه على عباده وليس ذلك من باب المعاوضة والاستحقاق . كما يستحق الأجير أجره على من استأجره . (٢)

أما العقاب على المعاصي فليس بواجب عليه تعالى بل يعذب من شاء ويغفر لمن يشاء ممن لم يشرك به .

أما الشرك فان الله تعالى لا يغفره كما قال تعالى :" ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء " ذلك أن الشرك وان كان قبيحا عقلا الا أن الجزاء عليه مشروط بورود الشرع ، وقد ورد الشرع بعقاب المشرك الذي مات على الشرك وأن الله لا يغفر الشرك به .

فالمشرك معاقب بما أوعده الله به ولا عذر له بعد الرسالة .

---

(١) رواه مسلم كتاب الايمان ج ١ ص ٥٨

(٢) ابن تيمية ، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٤٠٩ ، ٤١٠

خامسا : العوض عن الآلام

العوض عن الآلام قد أوجبه المعتزلة على الله تعالى بناء على القول بالحسن والقبح العقليين .وفسروا العوض عن الآلام : بأنه نفع مستحق خال عن التعظيم والاجلال . (١)

وقالوا : ان الألم ان وقع جزاء لما وقع من العبد من سيئات كألم الحد : لم يجب على الله العوض .

وان لم يقع الألم جزاء ،فان كان الايلام من الله وجب العوض ،وان كان من مكلف ، فان كان له حسنات أخذ من حسناته ،وأعطى المجنى عليه عوضا لايلامه ، وان لم يكن له حسنات ، وجب على الله اما صرف المؤلم عن ايلامه ، أو تعويض المجنى عليه بما يوازى ايلامه . ولا ينقص عنه .

فوجوب العوض على الله عندهم فى حالتين :

١) اذا كان الألم من الله لا فى مقابلة سيئة .

٢) اذا كان الايلام من مكلف ، ولم يصرف الله المؤلم عن ايلامه ولم يكن للجانى حسنات تعوض المجنى عليه عن ألمه .

ودليلهم على وجوب العوض عن الآلام هو : أن ايلام العبد بدون جناية يستحق عليها هذا الايلام وتركه بدون عوض ظلم والظلم قبيح فوجب العوض (٢) .

أما الأشاعرة فقد قالوا : يجوز الايلام من غير عوض بناء على أصلهم فى نفى الحسن

---

(١) وذلك ليفرقوا بينه وبين الثواب على الطاعة الذى هو منفعة دائمة خالصة مقرونة بالتعظيم والاجلال

(٢) أنظر شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٤٩٤ – ٥٠٠

والقبح العقليين . وألزموا المعتزلة على مقتضى قولهم المصير الى أن كل بقة وبرغوث اذا آلمه الله أنه يجب عليه أن يحشره ويعوضه عن ألمه . (١)

وقد أجابوا عن قول المعتزلة أن ترك العوض ظلم بأن الظلم ممنوع فى حقه تعالى لأنّ الظلم هو : التصرف فى ملك الغير ، ولا شك فى انتفائه ، لأنّه تعالى رب كل شئ ومالكه .

الـرأى الراجـح

والحق أن لله تعالى فيما يخلقه فى عبده من ألم أو فيما يحدثه فى الحيوان من ألم حكما عظيمة قد تخفى علينا . يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

" وأما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون : لله تعالى فيما يخلقه من الحيوان حكم عظيمة ، كما له حكم فى غير هذا .

ونحن لا نحصر حكمته فى الثواب والعوض ، فان هذا قياس لله تعالى على الواحد من الناس ، وتمثيل لحكمته ، وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله . والمعتزلة مشبهة فى الافعال معطلة فى الصفات " (٢) .

وبهذا يتضح مذهب السلف وأنهم لا يوافقون المعتزلة على ايجابهم العوض على الآلام ، لأنّ فى ذلك قياسا للخالق على المخلوق .

---

(١) الغزالى ، الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٨٠

(٢) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل ، رسالة الارادة والامر ص ٣٦٢

ثم انه من المعلوم أن ما يصيب العبد من الآلام والمصائب فهو بسبب ذنوبه .
كما قال تعالى " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير" (١) .

وقد ورد في السنة أنه ما يصيب المسلم من ألم أو أذى أو هم أو حزن مكفر لخطاياه . ففي حديث عائشة رضي الله عنها : " ما من شيء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه الا كتب الله له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة " (٢) .

وذلك فضل من الله ورحمة .

أما ما يصيب الكافر من مصائب في الدنيا فهي عقوبة الى عقاب الله له في الآخرة ولكي يتضرع الى الله ويرجع عن كفره . قال تعالى " فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا" (٣) أما بالنسبة لآلام البهائم فلم يرد نص بتعويضها عنه فنكل علم ذلك الى الله .

والواجب اعتقاد أن لله في كل فعل من أفعاله حكمة باهرة قد يقصر عن دركها عقول الكمل والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

---

(١) سورة الشورى آية ٣٠
(٢) رواه مسلم ج ٤ ص ١٩٩٢ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه
(٣) سورة الانعام آية ٤٣

سادساً

منع تكليف مالا يطاق

ومما فرع على القول بالتحسين والتقبيح العقليين عند المعتزلة منع التكليف بما لا يطاق . والخلاف فيه مشهور بين علماء الكلام .

وقبل ذكر الخلاف نبين حقيقة ما لا يطاق وما الذي اختلف فيه منه فنقول : ان ما لا يطاق أنواع ثلاثة :

١) ما لا يطاق ولا يقدر عليه المكلف لذاته كالجمع بين النقيضين والضدين .

٢) ما لا تتعلق به القدرة الحادثة لتعلق علم الله تعالى بعدم وقوعه ، كطلب الايمان من الكافر الذي علم الله أنه يموت على الكفر .

٣) ما لا تتعلق به القدرة الحادثة عادة ، بألا يكون من جنسها تتعلق به كخلق الأجسام ، أو كان من جنس ما تتعلق به ولكنه من نوع لا تتعلق به كحمل الجبل والطيران الى السماء . (١)

١ ـ أما القسم الأول :

فمن قال ان الممتنع لذاته قد يتصور فقد يقول بجواز التكليف به .

ومن قال : ان التكليف بالشيء وطلبه فرع تصور وقوعه ، لأن الطالب لشيء لابد أن يكون متصورا لمطلوبه على الوجه الذي يريد أن يكون عليه والممتنع لذاته لا يتصور واقعا . فمن قال ذلك ، قال لا يجوز التكليف به .

٢ ـ أما القسم الثاني :

فالاجماع قائم على جواز التكليف به ووقوعه ، وعلم الله بعدم وقوعه لا يؤثر في جعله غير مقدور عليه ، لأن العلم ليس صفة مؤثرة ، ولأن ما علم اللـــه

---

(١) الكمال بن أبي شريف ، المسامرة شرح المسايرة ص ١٧١ وشرح المواقف ج ٨ ص ٢٠٠ ، ٢٠١

عدم وقوعه مقدور بالقدرة المصححة للتكليف التى هى سلامة آلة العبد التى يتمكن بهامن الفعل • ولو لم يقع التكليف به لما كان العاصى بكفره وفسقه مكلفا (١) •

٣ ـ أما القسم الثالث : فهو محل النزاع ، وقد أجاز الأشاعرة التكليف به عقلا ، وان لم يقع فى الشرع بدليل قوله تعالى " لا يكلف الله نفسا الا وسعها" (٢)

وقد أجازوه عقلا بناء على نفيهم الحسن والقبح العقليين فقالوا : انه تعالى لا يقبح منه شىء ولا يجب عليه شىء كما استدلوا على جواز التكليف بما لا يطاق بأنه لو لم يجز تكليف العباد مالا يطيقونه لما كان لسؤال دفعه عنهم معنى ، وقد سألوا ذلك من الله بقولهم " ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به " (٣) • فسؤالهم دفعه دليل على جواز وقوعه • (٤)

رأى المعتزلـــــة :

وقالت المعتزلة : لا يجوز تكليف العباد ما لا يطاق لأنه قبيح واللـــــه تعالى منزه عن فعل القبيح فلايجوز صدوره منه (٥)

أما وجه قبحه : فانا نرى أنه لو كلف الأعمى نقط المصحف أو كلف السيـــد عبده الطيران الى السماء عدّ ذلك سفها وكان قبيحا ، فاذا كان ذلك قبيحا فـى الشاهد كان قبيحا فى الغائب فلا يجوز من الله تعالى •

---

(١) الجرجانى ، شرح المواقف ج ٨ ص ٢٠١ والتفسير القيم لابن القيم ص ٢٢٩
(٢) سورة البقـرة آية ٢٨٦
(٣) سورة البقـرة آية ٢٨٦
(٤) الجرجانى شرح المواقف ج ٣ ص ١٦٠
(٥) القاضى عبد الجبار شرح الأصول الخمسة ص ١٢٣

وقد وافق المعتزلة في ذلك الماتريدية لأنهم من القائلين بالحسن والقبيح العقليين . (١)

رأي السلف :

ويرى شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله أن اطلاق القول بجواز تكليف ما لا يطاق من البدع الحادثة وأن بعض أئمة الأشاعرة لم يكونوا يطلقون القول بجواز تكليف ما لا يطاق . ونسوق هنا ما قاله في ذلك :

" وهؤلاء — يقصد بعض الأشاعرة — أطلقوا القول بتكليف ما لا يطاق وليس في السلف والأئمة من أطلق القول بتكليف ما لا يطاق " الى أن قال :

" ولهذا كان المقتصدون من هؤلاء كالقاضي أبي بكر الباقلاني وأكثر أصحاب أبي الحسن ، وكالجمهور من أصحاب مالك والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، كالقاضي أبي يعلى وأمثاله يفصلون في القول بتكليف ما لا يطاق فيقولون تكليف ما لا يطاق لعجز العبد عنه لا يجوز ، وأما ما يقال انه لا يطاق للاشتغال بضده فيجوز تكليفه (٢)"

أما بالنسبة الى التكليف بما لا يطاق عادة كتكليف الزمن العاجز بالمشي وتكليف الأعمى بالنظر فيوضح شيخ الاسلام ابن تيمية ذلك بقوله :

" وأما العاجز عن الفعل كالزمن العاجز عن المشي ، والأعمى العاجز عن النظر ونحو ذلك . فهؤلاء لم يكلفوا بما يعجزون عنه .

ومثل هذا التكليف لم يكن واقعا في الشريعة باتفاق طوائف المسلمين ، الا

(١) الكمال بن أبي شريف المسامرة بشرح المسايرة ص ١٥٦
(٢) ابن تيمية الفتاوي ج ٨ ص ٤٦٩ باختصار

شرذمة قليلة من المتأخرين (١) ادعوا وقوع مثل هذا التكليف في الشريعة ، ونقلوا ذلك عن الأشعري وأكثر أصحابه ، وهو خطأ عليهم .

وأما جواز هذا التكليف عقلا فأكثر الأمة نفت جوازه مطلقا ، وجوزه عقلا طائفة من المثبتة للقدر من أصحاب أبي الحسن الأشعري ومن وافقهم" (٢)

ثم ان شيخ الاسلام ابن تيمية قد تعرض للرد على الرازي في زعمه أن التكليف بما لا يطاق قد وقع في الشريعة لأن الله تعالى كلف أبا لهب أن يؤمن بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن جملة ماجاء به الرسول أنه - أي أبا لهب - لا يؤمن فقد أخبر تعالى بأنه لا يصدق بل يموت على الكفر فقال " سيصلى نارا ذات لهب " (٣) ، فيكون مأمورا بالجمع بين المتناقضين ، والجمع بين المتناقضين ممتنع لذاته ومع ذلك وقع التكليف به (٤) .

وقد أجاب شيخ الاسلام ابن تيمية عن ذلك بقوله :

" أما تكليف أبي لهب وغيره بالايمان فهذا حق ، وهو اذ أمر أن يصدق الرسول في كل مايقوله ، وأخبر مع ذلك أنه لايصدق بل يموت كافرا لم يكن هذا متناقضا ولا هو مأمور أن يجمع بين النقيضين فانه مأمور بتصديق الرسول في كل مابلغ ، وهذا التصديق لايصدر منه ، فاذا قيل له أمرناك بأمر ونحن نعلم أنك لاتفعله لم يكن هذا تكليفا بالجمع بين النقيضين " .

الى أن قال :

---

(١) كالرازي والغزالي
(٢) المصدر السابق ص٤٧٠
(٣) سورة المسد آية ٣
(٤) الغزالي الاقتصاد في الاعتقاد ص١٧٩ ، ١٨٠ وحاشية سيالكوتي على الخيالي على النسفية ج ٢ص١٣٢

" وهذا كله لو قدر أن أبالهب أسمع هذه الآية وأمر بالتصديق بها ، وليس الأمر كذلك ، لكن لما أنزل الله قوله " سيصلى نارا ذات لهب " (١) لم يسلم لهم أن الله أمر نبيه باسماع هذا الخطاب لأبى لهب ، وأمر أبالهب بتصديقه ، بل لا يقدر أحد أن ينقل أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أبا لهب أن يصدق بنزول هذه السورة فقوله : انه أمر أن يصدق بأنه لايؤمن ، قول باطل لم ينقله أحد من علماء المسلمين . فنقله عن النبى صلى الله عليه وسلم قول بلا علم ، بل كذب عليه.

فان قيل : فقد كان الايمان واجبا على أبى لهب ، ومن الايمان أن يؤمن بهذا قيل له : لا نسلم أنه بعد نزول هذه السورة وجب على الرسول أن يبلغه اياها ، بل ولا غيرها ، بل حقت عليه كلمة العذاب كما حقت على قوم نوح اذ قيل له : " لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون " (٢)

وبعد ذلك لا يبقى الرسول مأمورا بتبليغهم الرسالة ، فانه بلغهم فكفروا حتى حقت عليهم كلمة العذاب بأعيانهم " (٣) .

وبهذا يتبين أن السلف يرون عدم جواز اطلاق القول بتكليف ما لا يطاق وأن تكليف ما لا يطاق لم يقع فى الشريعة باتفاق طوائف المسلمين الا شرذمة قليلة - على ما سبق - لأن الله تعالى قد أخبر أنه لايفعل ذلك كما قال تعالى " لا يكلف الله نفسا الا وسعها " (٤) .

أما جوازه عقلا : فالسلف مع جمهور الأمة فى منعه . لأن عدل الله وحكمته ورحمته تأبى ذلك .

---

(١) سورة المسد آية ٣
(٢) سورة هود آية ٣٦
(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ج ٨ ص ٤٧٢ ، ٤٧٣
(٤) سورة البقرة آية ٢٨٦

البـــــاب الخامـــــس

مظاهــــر مـــن حكمـــة اللـــــــه

ويشتمل على أربعة فصـول :

الفصل الأول

مظاهر من حكمة الله تعالى في الكون

تمهيد :

تقدم بيان آراء الفرق في الحكمة وأن الجميع متفقون على أن أفعال الله لا تخلو من الحكمة والمصلحة . كما اتفقوا على أن صنعه وخلقه في غاية الإحكام والاتقان.

وغاية ما هنالك من خلاف في الحكمة فهو في كونها مقصودة ومطلوبة له تعالى ويفعل لأجلها . فقال بعضهم بذلك وهم الجمهور . وقال بعضهم ان الحكم مترتبة على الأفعال وحاصلة عقبها وليست مقصودة ولا باعثة له تعالى على الفعل والحق الذى يدل عليه الكتاب والسنة هو أنه لا مانع من أن تكون الحكمة مقصودة بالفعل فهو سبحانه يفعل لأجلها - على ما سبق بيانه - وحكمة الله تعالى ظاهرة في خلقه وصنعه وآثارها ظاهرة لكل من تأمل في هذا الكون العجيب الواسع البديع المحكم الصنع .

بل ان من أهم الدلائل على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته ظاهرة الحكمة. ولذا نجد القرآن الكريم كثيرا ما ينبهنا الى أن نتدبر ونتأمل في مظاهر حكمته تعالى ودلائل قدرته في هذا الكون كما قال تعالى : " قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (١) .

ولما كان موضوعنا هو الحكمة في أفعال الله ، فانه يجدر بنا أن نعرض بعض

---

(١) سورة يونس آية ١٠١

الظواهر الدالة على مراعاته تعالى للحكمة فى خلقه ،لنزداد ايمانا ويقينا بحكمته تعالى التى هى من أهم الدلائل على وحدانيته وألوهيته •

وسنبدأ بذكر الحكمة في المخلوقات الكونية ومن أعظم ذلك السموات •

أولا : الحكمة فى خلق السموات وما اشتملت عليه من بديع صنع الله

قال تعالى : " ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار " (١) •

وقال تعالى : " وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن اياتها معرضون " (٢)

اذا تأملنا هذا الكون فاننا نجده كالبيت المعد فيه جميع ما يحتاج اليه سكانه •

فالسماء بمنزلة السقف •

والأرض بمنزلة البساط •

والنجوم منصوبة بمنزلة المصابيح •

والجواهر مخزونة فى باطن الأرض كالذخائر فى البيت •

والنباتات والثمار كالقوت (٣) •

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ ـ ١٩١
(٢) سورة الأنبياء آية ٣٢
(٣) أبو حامد الغزالى ،الحكمة فى مخلوقات الله عز وجل ص ٣

فالسماء قد سماها الله سقفا ، وكل سقف لابد أن يقوم على أعمدة ، أمـــــا السماء فهى قائمة بغير عمد كما نبهنا الله تعالى الى ذلك بقوله : " الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها " (١) • فهى اما أن تكون لا عمد لها مرئية لنا ، أو تكون لا عمد لها أساسا وكلا الأمرين فيه دلالة على قدرة الله وبديع صنعه •

فهو الممسك لها والحافظ لها مع عظمها وعظم ما فيها لطفا بعباده ورحمة بهم ، يقول تعالى : " ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتـــــا ان أمسكهما من أحد من بعده ، انه كان حليما غفورا " (٢) •

ولا تنافى بين كونه تعالى هو الممسك لها وبين ما يقوله العلم الحديـــث : أن هذا الامساك يحصل بقوة الجاذبية فاذا كانت السماء ممسكة بفعل الجاذبيـــة فهذه الجاذبية من صنعه عز وجل •

يقول الشيخ نديم الجسر فى كتابه قصة الايمان بعد أن ذكر أن علماء الطبيعة يسندون امساك السماء الى قوة الجاذبية " ولعمرى انه الحق ما قالوا ، فالجاذبيـة حق ، وقوانينها المحسوسة المتزنة المناسبة المحكمة الدقيقة حق •

ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم أثرا من آثار المصادفة العمياء ؟ ! " (٣) وكون السماء مرفوعة فوقنا بغير عمد مرئية دليل على قوة الله وقدرته واتقانه لصنعه •

أما لون السماء اذا تأملناه فاننا نجده من اتقان التدبير ولطف الحكمة ، لأنه من أفضـل الألوان موافقة للبصر • فان لونها أزرق والزرقة كالخضرة فى ملائمة البصـر ، وهذا يلمسه كل واحد منا عند ما ينعم النظر فى السماء فانه يجد راحة كما لو كان ينظر الى روض

---

(١) سورة الرعد آية ٢ (٢) سورة فاطر آية ٤١

(٣) نديم الجسر : قصة الايمان ص ٢١١

حافــل بالاشجـار • (١)

ولو كانت السماء أشعة أو أنوارا متوهجة لأضرت ببصر الناظر اليهـا

فسبحان العليم الحكيم •

أما سعة السماء وبعد مسافاتها فهذا ما يندهش له العقل وقد استطاع العلـم

الحديث بوسائله أن يكشف من ذلك ما لم يكن يتصوره العقل •

يقول الشيخ نديم الجسر فى بيان ذلك :

" فقد أثبت العلم الحديث البعد الشاسع بيننا وبين السماء بما يعرف بالسنين

الضوئية ، حيث ان الضوء يقطع فى الثانية ستة وثمانين ومائة ألف ميل وفى الدقيقة

أحد عشر مليونا وستين ومائة ألف ميل وفى السنة الواحدة من سنينا يقطع الضوء

ستة آلاف مليار ميل تقريبا •

وهذه هى المسافة التى اصطلحوا على تسميتها "السنة الضوئية" ليعبروا

بها عن أبعاد السماء الهائلة •

فمتى قيل لنا ان نجما يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا أنه يبعد عنا ستة

ملايين مليون ميل • فالقمر وهو أقرب الأجرام السماوية الى الأرض يصل نوره الينا

فى أقل من ثانيتين لأن بعده عن الأرض أربعون ومائتا ألف ميل تقريبا • أما

أقرب نجم الى الأرض فانه يبعد عنا أربع سنوات ضوئية تقريبا ومعنى ذلك أنه يبعد

عنا ثلاثة وعشرين مليون مليون ميل تقريبا •

---

(١) هذا اللون الذى نشاهده عندما ننظر الى جهة السماء هو فى الواقع لون طبقات الجو ولكن لما كانت ترى من فوقنا فهى سماء لنا • الشيخ محمد عبد الرزاق حمزه فى تعليقه على كتاب التوحيد للامام جعفر الصادق ص ٧٤

وهناك نجوم أبعد من ذلك كالنجم المسمى " النسر الطائر" الذى يبعد عنا أربع عشرة سنة ضوئية و " النسر الواقع" الذى يبعد عنا ثلاثين سنة ضوئية" (١) .

وخلاصة القول : أن السماء هى من أكبر آيات الله ومن أعظم مخلوقاته الدالة على وحدانيته وقدرته وحكمته . قال تعالى : " الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور" (٢) .

يقول الامام ابن القيم فى ذلك :

" فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة الى السموات كقطرة فى بحر، ولهذا قل أن تجىء سورة فى القرآن الا وفيها ذكرها اما أخبارا عن عظمتها وسعتها واما اقساما بها ، واما دعاء الى النظر فيها ، واما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ، واما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته " (٣) .

ومما يتعلق بالكلام عن خلق السماء الاشارة الى مايوجد بها من الكواكب والشمس والقمر ويدل على عظم شأنها أن الله أقسم بها فى القرآن فى مواضع من كتابه كقوله " والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها " (٤) ، " والنجم اذا هوى " (٥) ، " والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب " (٦) .

---

(١) نديم الجسر ، قصة الايمان ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ بتصرف
(٢) سورة الملك آية ٣
(٣) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ باختصار
(٤) سورة الشمس آية ١ ، ٢
(٥) سورة النجم آية ١
(٦) سورة الطارق آية ١ - ٣

ولم يقسم الله بشيء من مخلوقاته أكثر مما أقسم بالسماء وما فيها من النجوم والشمس والقمر . وهو سبحانه انما يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات الدالة عليه ، وكلما كان أعظم في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره .

ولهذا يعظم هذا القسم بقوله " فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " (١) .

يقول سيد قطب رحمه الله عند تفسير هذه الآية :

" ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم الا القليل الذي يدركونه بعيونهم المجردة ، ومن ثم قال لهم " وانه لقسم — لو تعلمون — عظيم " .

فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به نصيبا أكثر بكثير مما كانوا يعلمون . وان كنا نحن أيضا لا نعلم الا القليل عن عظمة مواقع النجوم " الى أن قال :

" ويقول الفلكيون ان من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى الا بالمجاهر والأجهزة ويمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر " . (٢)

فهذه النجوم السابحة في مداراتها وهي على كثرتها التي لا يعلمها الا الله لا يحدث بينها صدام بل يظل كل منها في مداره يؤدي الغاية التي خلق لأجلها

---

(١) سورة الواقعة آية ٧٥ ، ٧٦
(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ط ٦ جلد ٧ ص ١٤١ ، ١٤٢

من حرارة وضوء وجاذبية وغير ذلك حتى تطوى صفحة هذا الكون • ان الناظر في هذا كله ليستدل على اتقان الله صنعته وابداعه لما خلق وربطه بغايات باهرة وحكم قد تظهر لنا وقد تخفى •

الحكمة من خلق الشمس •

واذا تأملنا طلوع الشمس وغروبها وما ينشأ عن ذلك من ليل ونهار لوجدنا حكما باهرة فلولا طلوعها لتعطلت مصالح الناس ، لأنهم لا يستطيعون أن يسعوا في معائشهم ، ويقضوا حوائجهم في ظلمة الليل الدامسة الا بمشقة •

وأيضا فان الشمس تمد الناس والحيوانات بالدفء وتصلح النبات وتنضج الثمار •

أما غروبها : فانها لو لم تغرب لملها الناس ، (١) ولأن الناس بحاجة الى الهدوء والاستقرار والنوم واستجمام الحواس •

ولك أن تتصور كيف يكون الحال لو لم تغرب حيث كانت الأرض تزداد حرارتها بدوام شروق الشمس وتوهجها حتى يحترق كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات •

لذا كانت الحكمة أن تطلع وقتا وتغيب وقتا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا متعاونين متظاهرين لاتمام مصالح العالم •

وقد أشار تعالى الى هذا المعنى بقوله : " قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون • ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من

---

(١) من شعر الامام الشافعي رحمه الله قوله :
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة • لملها الناس من عجم ومن عرب

فضلـه ولعلكم تشكرون " (١) .

يقول سيد قطب رحمه الله عند تفسير هذه الآيات :

" والناس لطول ما اعتادوا من كر الجديدين (الليل والنهار) ينسون جدتهما المتكررة ، التي لا تبلى ، ولا يروعهم مطلع الشمس ومغيبها الا قليلا ، ولا يهزهم طلوع النهار واقبال الليل الا نادرا ، ولا يتدبرون مافي تواليهما من رحمة بهم ، وانقاذ من البلى والدمار أو التعطل والبوار أو الملل والهمود . "

الى أن يقول :

" والناس يشتاقون الى الصبح حين يطول بهم الليل قليلا في أيام الشتاء ، ويحنون الى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب ، فكيف بهم لوفقدوا الضياء ولودام عليهم الليل سرمدا الى يوم القيامة ؟

وذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء ، وان الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار لولم يطلع عليها النهار .

والناس يستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار ، ويحنون الى الليل حين يطول النهار بضع ساعات في الصيف ، ويجدون في ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار .

والحياة كلها تحتاج الى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار . فكيف بالناس لوظل النهار سرمدا الى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء ، وان الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار ان دام عليها النهار " (٢) .

---

(١) سورة القصص الآيات ٧١ ــ ٧٣

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن جلد ٦ ص ٣٩٦ ، ٣٧٠ باختصار

وقد صرح سبحانه فى الآية الأخيرة بالحكمة فى ايجاد الليل والنهار وهى : أن الليل للسكون والهدوء والقرار . والنهار للنشاط ومزاولة العمل لطلب الرزق ولأجل أن يشكر العباد نعمة الله عليهم فى حسن تدبيره ولطفه بعباده .

" ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (١)

فتعاقب الليل والنهار من أجلّ النعم التى أنعم الله بها على عباده والتى هى من أدلّ الدلائل على واسع فضله تعالى وعظيم حكمته .

الحكمة من خلق القمر :

ولنتأمل هذا القمر المنير وما فيه من العجائب والفوائد التى تدل على لطفه تعالى بعباده وحسن تدبيره لشئون خلقه .

حيث يبدأ دقيقا ثم يزداد نوره ويتكامل حتى يكون بدرا كاملا . ثم يأخذ فى النقصان شيئا فشيئا حتى يعود الى حالته الأولى ليعرف من ذلك المواقيت الزمانية وتتميز الأشهر والسنون فيعلم بذلك مواسم العبادات كالصيام والحج والأعياد ، كما يعلم حساب الأعمار والآجال المضروبة للديون والاجارات والمعاملات .

قال تعالى " هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون " (٢)

ولنتأمل الحكمة فى نوره فقد جعله الله نورا هادئا لطيفا لكيلا يذهب بهدوء الناس وسكونهم بالليل كما لم يجعل فى أشعته حرارة كأشعة الشمس لكيلا تذهب ببرودة الليل .

وكم فى نور القمر من منافع للناس والحيوانات ولا يزال الناس الذين يعيشون فى

---

(١) سورة القصص آية ٧٣
(٢) " يونس آية ٥

البوادى ينتفعون بنوره كما أن المسافرين فى ظلمة الليل ينتفعون به •

أما موقع القمر بالنسبة للأرض فهو من أقرب الأجرام السماوية الى الأرض ، فلا يبعد عنها سوى أربعين ومائتى ألف ميل تقريبا •

ولو كانت المسافة بينه وبين الأرض أقل أو أكثر لاختل النظام كله ، لأنه لوقرب الى الأرض لزادت جاذبيته ولأدى ذلك الى قوة المدّ فى البحار حتى يطغى الماء على اليابسة كلها •

ولو قرب جدا لجذبته الأرض فوقع عليها • أما لو بعد عن الأرض جدا لحرمنا من ضوئه ومنافعه •

وقد أشار الله تعالى الى بعض منافع القمر بقوله : " والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب" (١) •

والعلم يقول : " ان القمر فى دورته الشهرية يقطع كل يوم ثلاث عشرة درجة ويتأخر كل يوم تسعا وأربعين دقيقة نحو الشرق ليكشف عن جانبه المنير كشفا متدرجا يبدأ به هلالا ثم بدرا ثم يرجع كالعرجون القديم حتى يختفى ويطلع بعد تسعة وعشرين يوما وثمان ساعات هلالا جديدا نعرف به عدد السنين والحساب" (٢) •

يقول الامام ابن القيم رحمه الله فى ذكر الحكمة من نور القمر :

" ثم تأمل انارة القمر والكواكب فى ظلمة الليل والحكمة فى ذلك ، فان الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان ، وبرد الهواء على الأبدان والنبات• فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشىء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لا ضوء فيه أصلا فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شىء من الحركة والأعمال " (٣)

---

(١) سورة يونس آية ٥
(٢) نديم الجسر ، قصة الايمان ص ٣٢٨
(٣) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٢١٠

وهذا بعض ما ظهر للناس من الفوائد والحكم فى القمر ، وأمـــا ماخفى من الحكم التى نيطت به فعلمها عند الله ، ونرى العلـــــوم كل يوم تتوصل الى الكشف عن أسرار جديدة فى هذا الكون العجيب •

ثانيا : الأرض ومظاهر من الحكم فيهـــــا

لقد امتنّ الله سبحانه على عباده فى آيات كثيرة بأنه جعل لهم هذه الأرض مهادا ـ أى ممهدة سهلة ـ وسخر لهم كنوزها التى فى باطنها وما على وجههـــا من كل شىء ، ولفت أنظارهم الى التأمل فى الحكم والأسرار التى أودعت فيها .

قال تعالى :

ـ " أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا أإلـه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون " (١) .

ـ " الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون " (٢) .

ـ " والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون " (٣) .

ـ " ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا وجعلنا فيها رواسى شامخــــات وأسقيناكم ماء فراتا " . (٤)

ان هذه الآيات وغيرها تسترعى انتباهنا الى التأمل والتفكر فى حسن تدبيـر الله تعالى ولطفه بخلقه حيث مهد لهم هذا الكوكب ، فجعله صالحا للسير فيـــه يمشون فى مناكبه ويأكلون من رزق الله الذى أودعه فيه وزوده بكل لوازم الحياة ..

وجعله من بين الكواكب الأخرى صالحا ليعيش عليه هذا الانسان الذى جعله

---

(١) سورة النمل آية ٦١
(٢) سورة الزخرف آية ١٠
(٣) سورة الذاريات آية ٤٨
(٤) سورة المرسلات آية ٢٥ ـ ٢٧

خليفة فى هذه الأرض وسيدا على سائر المخلوقات الموجودة بها ليسخرها لمنفعته .

" وقد تبين للعلماء الباحثين فى الفلك أن الكواكب الأخرى لم تزود بما يلزم الحياة كأرضنا ، ومن أهم تلك الكواكب : عطارد ، والزهرة ، والمريخ والمشترى وزحل .

واليك بعض الأسباب لعدم امكان الحياة عليها .

فعطارد : يقولون ان أحد وجهيه متجه دائما نحو الشمس ، والوجه الآخر لا يقابل الشمس مما يجعل أحد نصفيه شديد الحرارة ، والنصف الآخر شديد البرودة ، كما أن جاذبيته قليلة ، لأن كثافته نصف كثافة الأرض وفى الوقت نفسه ليس فيه هواء .

أما الزهرة : فهى كعطارد فى اتجاه أحد وجهيها دائما الى الشمس ، والآخر لا تصله الشمس ، مما يجعل الوجه الأول تصل حرارته الى تسعين درجة . والوجه الثانى تنخفض الى عشرين درجة تحت الصفر . وليس بها هواء ولا ماء بل فيها بخار سميك .

والمريخ الذى توقع بعض العلماء أن فيه أحياء ، لأنه يدور حول نفسه كل أربع وعشرين ساعة مثل الأرض ظهر أنه لا يصلح للحياة ، لأن بعده عن الشمس مائة واثنان وأربعون مليون ميل ، وحرارته فى النهار بضع درجات فوق الصفر ، ولكنها تنزل فى الليل الى سبعين درجة تحت الصفر .

أما المشترى فان درجة الحرارة فيه مائة وثلاثون درجة تحت الصفر وجاذبيته قليلة لأن كثافته ربع كثافة الأرض ويرجح أنه كرة من الغاز والمواد الذائبة .

وزحل الذى يبلغ بعده عن الشمس سبعة وثمانين وثمانمائة ميل لا يصل اليه من حرارة الشمس الا جزء من تسعين جزءا مما يصل الى أرضنا .

والقمر أيضا : لا يحتوى على هواء وهو فى أثناء الليل يكون شديـــد البرودة ، وفى أثناء نهاره الطويل يكون شديد الحرارة" (١)

لذلك تبين أن هذه الكواكب التى هى مماثلة لكوكب الأرض لا تصلح للحياة التى تصلح لها الأرض .

ومن المعروف لدى علماء الفلك أنه لا يوجد أحياء الآن على أى كوكب آخـــر غير الأرض .

ومن ثم يتجلى لنا دلائل الحكمة ، والعناية ، والقصد والاتقان ، حيث لما جعل الله هذه الأرض لتقوم عليها حياة الانسان والحيوان هيأها وزودها بما تحتاج اليه الحياة .

والى جانب ما تقدم نجد أن الأرض يحيط بها غلاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة .

وتوجد المعادن قريبا من سطح الأرض ، لتكون فى متناول أيدى الناس ، مما هيأ لهم استخراجها واستغلالها فى اقامة العمران والصناعات .

الحكمة من خلق الجبال :

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن مظاهر الحكمة فى خلق الأرض أن نشير الى بعض الحكم فى خلق الجبال وقد أشار اليها القرآن الكريم حيث قال تعالى :

ـ " وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم" (٢) .

ـ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى " (٣) .

---

(١) انظر قصة الايمان لنديم الجسر ص ٣١٦ ، ٣١٧ وكتاب الله يتجلى فى عصر العلم لمجموعة من العلماء الأمريكيين ص ٥٣ ، ٥٤

(٢) سورة النحل آية ١٥ (٣) سورة الحجر آية ١٩

- " والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا " (١)٠

فالجبال أوتادا تمسك الأرض لئلا تميد وتضطرب ، فلو كانت الأرض مضطربة لما تمكن الناس من السعي فيها ،ولم يكونوا ليهنأوا بالعيش والأرض ترتج من تحتهم وتميد بهم ٠

وبالاضافة الى وظيفة الجبال الرئيسية ،وهى كونها أوتادا للأرض ، فهى أيضا أكنان يستكن فى كهوفها ، وهى حواجز للرياح ، ومعاقد للثلوج فى أعاليها ومنافذ للينابيع ومجار للأنهار فى أسافلها ٠

ثم ان وجود الجبال ضرورى لتصريف الأمطار والثلوج التى تسقط عليها حيث تنحدر منها لسقى الزرع والحيوان ولو كانت الأرض كلها منبسطة متساوية لسقط المطر والثلوج عليها ،وتشتت الماء أو تكونت المياه فى مستنقعات ولاسبيل حينئذ الى أن تجرى فى الأرض ينابيع وأنهارا ووديانا يستطيع الناس الاستفادة منها فى سقى أراضيهم ٠

فتأمل ذلك جيدا ليتجلى لك أن كل ذلك ليس من قبيل المصادفة كما يقول الملحدون ولا من قبيل العمل الخالى عن الغايات المقصودة والحكم المطلوبة كما يقوله نفاة الحكمة والتعليل ٠

الحكمة من خلق البحار :

ولقد من الله على عباده بايجاد البحار التى تكتنف اليابسة ، والتى تمثل ثلثى مساحة الكرة الأرضية ٠

(١) سورة النحل آية ٨١

كما امتن علينا في القرآن الكريم بما أودعه من الأسرار والعجائب فيها ، ليلفت أنظارنا الى بديع صنعه وحكمته . قال تعالى :

" الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " (١) .

" وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " . (٢)

" يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " (٣) .

" ربكم الذى يزجى لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما " . (٤)

هذه الآيات وغيرها يشير الله تعالى فيها الى نعمه وحكمه في ايجاد البحار ويبين بعض منافع البحر وفوائده وهى :

- أنه يحمل السفن التى يسير على ظهره محملة بالبضائع والمسافرين .
- وأنه ممتلىء بالأسماك التى هى مصدر قوت هام لكثير من الناس بل هى الغذاء الرئيسى لبعض الشعوب .
- والناس يستخرجون منه حلية يلبسونها للزينة كاللؤلؤ والمرجان (٥) وهما من أغلى المعادن النفيسة وكذلك العنبر والياقوت وغير ذلك .

---

(١) سورة الجاثية آية ١٢
(٢) " فاطر آية ١٢
(٣) " الرحمن آية ٢٢
(٤) " الاسراء آية ٦٦
(٥) المرجان : الرقيق من اللؤلؤ أو صغار اللؤلؤ

ثم ان خلق البحر بذاته على الوضع الذى هو فيه ينطوى على أكبر نعمة وأعظم حكمة ورحمة •

فلولا هذا السطح العظيم من الماء الذى يغمر ثلثى الكرة مفرقا بين القارات لما تمت عملية التبخر ، ولما تمت عملية المطر الدورية التى هى قوام الحياة على الأرض فى هذه الحقبة الطويلة من الزمن الى أن يرث الله الأرض ومن عليها • ولو جعل ماؤه عذبا لدب اليه الفساد بما فيه من الحيوانات وما يصب فيه من سواقط اليابسة •

ولو جعل فى ناحية منعزلة من الكرة غير مفرق بين القارات لتعطلت دورة الماء العجيبة فى صعوده من البحر بالتبخر وعودته الى البحر من طريق الأنهار وعادت اليابسة مستنقعا لمياه الأنهار" • (١)

ومن فوائد البحار التى ظهرت حديثا ما توصلوا اليه من تحلية مياه البحر ، واستعمالها فيما تستعمل فيه المياه العذبة ، وبذلك أمكن القضاء على أزمة الماء فى بعض البلدان •

ولا تزال البحار موضع بحث ودراسة توصلا الى ما أودعه الله فيها من معادن وكنوز تعود بالخير على الانسان فى حاضره ومستقبله •

---

(١) نديم الجسر ، قصة الايمان ص ٣٣٦

الفصل الثاني

خلق الانسان ومظاهر من الحكمة فيه

تمهيد :

ان الله سبحانه كما دعانا الى التأمل في بديع صنعه في خلق السموات والأرض دعانا الى أن نتفكر في بديع صنعه لهذا الانسان الذى خلقه في أحسن تقويم ، فقد أنشأه خلقا آخر يختلف عن سائر الأحياء ويتميز عنها بالعقل والتفكير .

وتأمل الانسان في خلقه البديع الذى هو عليه وفي أجهزته المعقدة كجهاز السمع والبصر وجهاز التنفس والهضم وغيرها يؤدى الى نتيجتين :

الأولى : أنه لا بد أن يكون وراء هذا الخلق خالق اذ يستحيل حادث بدون محدث .

الثانية : أن هذا الابداع والاحكام في خلق الانسان وتزويده بمختلف أجهزته التي تؤدى وظيفتها في دقة مذهلة يدل على أن الله الخالق حكيم في أفعاله ومخلوقاته أتقن صنعه غاية الاتقان وأحسنه كما قال تعالى :

" الذى أحسن كل شيء خلقه " (١)

ولكي نلمس بعض جوانب من حكمة الله في خلق الانسان سنعرض لخلقه أطوارا وحفظه أثناء نموه في بطن أمه . ونتحدث عما زود به من سمع وبصر وغيرهما مما امتن الله به على عباده في القرآن الكريم .

---

(١) سورة السجدة آية ٧

مبــــدأ الخلقــــة

قال تعالى " ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفــة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين " . (١)

وقال تعالى :

" فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلـــب والترائب " . (٢)

نرى من هذه الآيات كيف خلق الله الانسان ، حيث أوجد أباه من طيـــن ، ثم جعل نسله من ماء مهين ، وهذا الماء يمر بمراحل طويلة حتى يتكون جنينـــا يمده الله تعالى بالغذاء في بطن أمه بطريقة عجيبة ، ويحميه من كل أسباب التلف حتى يخرج الى الحياة طفلا تام الخلقة .

يقول الامام ابن القيم رحمه الله في وصف مراحل تكون الجنين :

"فانظر الى النطفة بعين البصيرة ، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر ، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت ، كيف استخرجها العليم القدير من بيـن الصلب والترائب ، منقادة لقدرته ، مطيعة لمشيئته ، مذللة الانقياد على ضيـــق طرقها واختلاف مجاريها ، الى أن ساقها الى مستقرها . وكيف قدر اجتماع ذينـــك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق ، وجمعهما في موضع واحد ، جعل لهما قرارا مكينا ، لا يناله هواء يفسده ، ولا برد يجمده ولا عـارض

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٢ ـ ١٤
(٢) سورة الطارق آية ٥ ـ ٧

يصل اليه • ثم قلب تلك النطفة البيضاء علقة حمراء ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة فى شكلها ،ولونها ،وحقيقتها • ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة فى شكلها ، وهيأتها ،وملمسها ، ولونها • وتأمل الى حكمة الله كيف قسم أجزاء النطفة المتساوية المتماثلة الى الأعصاب ،والعظام ، والعروق واليابس واللين •

ثم ربط بعضها ببعض بأقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال • وكيف كساها لحما ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له ، فاللحم قائم بها وهى محفوظة به •

وانظر كيف صورها فأحسن صورها ، وشق لها السمع والبصر والفم وسائر المنافذ ،وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة ، والكبد والطحال والرئة وغيرها " • (١)

وبعد أن يتكون الجنين فى بطن أمه بتدبير الله تعالى ولطفه ويستحكم خلقه ،ويصلب عظمه يتهيأ الرحم لدفعه واخراجه بعد أن صار مهيئا للحياة على وجه الأرض• فيخرج ضعيفا غريبا فيضع الله فى قلب أمه وأبيه الشفقة والحنو عليه •

ويصف ذلك الامام ابن القيم أدق وصف حيث يقول :

" حتى اذا كمل خلقك واستحكم وقوى أديمك على مباشرة الأيدى ، والتقلب على الغبراء (٢) هاج الطلق بأمك فأزعجك الى الخروج ايما ازعاج الى عالم الابتلاء • فخرجت غريبا ضعيفا لا لباس ، ولا متاع ولا مال ، أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم •

---

(١) ابن القيم ،مفتاح دار السعادة ج ١ ص١٨٨ باختصار

(٢) الغبراء اسم للأرض

فصرف اللبن الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك الى خزانتين معلقتين على صدرها ، ثم ساقه الى تينك الخزانتين ألطف سوق فى مجار وطرق قد هيأها له ، فلا يزال واقفا فى طرقه ومجاريه حتى تلتهم ما فى الخزانة فيجرى وينساق اليك .

فحين تولد قد تلمظت (١) وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدى قد تدلى اليك ، وأقبل بدره (٢) عليك . وقد جعل فى رأس الثدى تلك الحلمة التى بمقدار فمك الصغير فلا تتعب بالتقامها .

ثم ثقب لك فى رأس تلك الحلمة ثقبا لطيفا بحسب احتمالك لم يوسعه فتختنق باللبن ، ولم يضيقه فتمصه بكلفة ، بل جعله بقدر اقتضته حكمته تعالى وعلى حسب مصلحتك . " (٣)

الحكمة من البصر

ولننظر الى حكمة الله الباهرة فيما جعل للانسان من حواس والبصر من أعظم نعم الله على الانسان ، فهو أغلى حاسة لديه ، ولذا تجده أحرص ما يكون على عينيه من أن تصاب بأذى .

وذلك لاننا نرى بوساطة العين الاشكال والالوان ، والمنظر الحسن ، والمنظر القبيح ، ونتأمل فى آلاء الله وبديع صنعه فى السماء والارض .

وجهاز البصر بالغ الاحكام ، عظيم الاتقان ، دقيق التركيب . وأهم أعضائه هى العين ، التى كونها الحكيم العليم من عدة أجزاء محكمة الربط دقيقة الصنع .

---

(١) تلمظ : أى : أخرج لسانه وحرك شفتيه بحثا عن اللبن (٢) الدر : اللبن
(٣) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ باختصار

وأهم هذه الأجزاء :

الشبكية : التى تتكون احدى طبقاتها من ثلاثين مليون عصا بصرية وثلاثة ملايين مخروط بصرى تنطبع عليها مختلف الصور .

ولولا تزويد الخالق الحكيم العين بهذه العصى والمخاريط البصرية لما أمكننا رؤية شىء . وقد أحاط الله العين بأغطية تحرسها وتحميها وتضفى عليها جمالا وحسنا من الأشفار والأجفان والحاجبين .

يقول أبو حامد الغزالى : " جعل العين للبصر ، ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء وهو أمر يعجز عن شرح سره (١) ، وركبها من سبع طبقات لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها ، فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الابصار .

وانظر الى هيئة الأشفار التى تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقى العين مايصل اليها مما يؤذيها من غبار وغيره .

ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لايزيد زيادة تضر بالعين ، ولا تنقص نقصا يضر بها .

وخلق فى مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها . وجعل طرفيها منخفضين عن وسطيهما قليلا لينصرف ما يقع فى العين لأحد الجانبين .

---

(١) يقول العلم الحديث عن عملية الابصار : أن هناك اشارات يحملها العصب البصرى الى مركز الوعى والادراك وهذه الاشارات تحدث فى العصب البصرى بتأثير أضواء الصورة المكونة على الشبكية فى العين ، أما الأضواء هذه فهى نتيجة لتأثير الجسم المشاهد على الأشعة الساقطة عليه من الشمس أو من مصباح

وجعل الحاجبين جمالا للوجه وسترا للعينين " (١) •

وتأمل الحكمة فى موقع العينين من جسم الانسان حيث جعلتا فى أعلى الوجه ليسهل على الانسان رؤية ماحوله • وليسهل الحفاظ عليهما •

ولم تجعل العين فى الاعضاء التى تمتهن باستخدامها فى حاجيات الانسان الكثيرة كاليدين والرجلين ، فتتعرض للآفات ، كما لم تجعل فى وسط البدن كالبطن فيعسر على الانسان التلفت والاطلاع على الاشياء فى كل الجهات " فتبارك الله أحسن الخالقين • " (٢)

السمع

لا يكاد السمع يذكر فى القرآن الكريم الا مقرونا بالبصر لحاجة الانسان الشديدة اليهما • كما فى قوله تعالى :

" وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون " (٣) •

" وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون " (٤) •

ولايخفى مقدار نعمة السمع التى آلتها الاذن ، فبه نتعلم العلوم المختلفة ونعرف ماغاب عن أنظارنا من عالم السموات والارض وأحوال الجنة والنار وغير ذلك من المغيبات ، ويقال ان تسعين فى المائة مما يتعلمه الانسان عن طريق السمع •

(١) الغزالى : رسالة الحكمة فى مخلوقات الله عز وجل ص ٢٠
(٢) سورة المومنون آية ١٤ (٣) سورة المومنون آية ٧٨
(٤) سورة النحل آية ٧٨

واذا فقد الانسان حاسة السمع فانه يفقد لذة الحوار والمخاطبة مع المجتمع الذى يعيش فى وسطه ، ويصعب على الناس خطابه وافهامه مما يجعلهم يتبرمون بـه كما أنه لايسمع أخبار مجتمعه وأحوالهم فهو بينهم شاهد كغائب ، وقريب كبعيـد .

وكل ذلك يدلنا على مدى أهمية حاسة السمع ، أما من ناحية صنع هذا الجهاز بدقة واتقان ، فان الحكمة تتجلى فى كيفية تكوين هذه الأذن العجيبة " بأبوابهـا وكواها وغشاواتها ، وغضاريفها ، وعظيماتها ، وكهوفها ومتاهاتها ، ومسالكهـا وطرقاتها ، وأعصابها ورباطاتها ، وجوامدها ومائعاتها ، وسلالمها وقنواتهـا ولوالبها وقوقعاتها ، وأكياسها وجراباتها ، وأحجارها وحصواتها " . (١)

ولكن : ما هى الحكمة من كل هذه الترتيبات ؟

انه لولا هذه الترتيبات التى يسير معها الصوت من البوابة الخارجية التى تسمـى "الصيوان" الى الصماخ (٢) السمعى ، الى الغشاء الطبلى ، الى الاذن المتوسطـة الى الأذن الباطنة ، الى أن تنتهى عند أعصاب السمع .

نعم لولا هذه الترتيبات كلها لما أمكن وصول الأصوات الى الدماغ بشكـل محتمل أو مفهوم أبدا .

فكل هذه الغضاريف المتعرجة ، والدهاليز المعوجة ، والأقنية المتداخلـة ، والغشاوات المشدودة . انما خلقت وأحكمت لأجل توزيع الاهتزازات الصوتية على وجـه يضعف قويها ، ويقوى ضعيفها ، ليتقى الجهاز السمعى كل رجة وصدمة ، ويشعـر

---

(١) نديم الجسر ، قصة الايمان ص ٣٨٩

(٢) الصماخ : خرق الاذن ويطلق على الاذن نفسها انظر القاموس المحيط باب الخاء فصل الصاد

الاحساس بالطف نغمة وأضعف نأمة .

ولما كانت الأصوات تصل الى الاذن بتموجات الهواء وهذه التموجات منها الشديد الحاد ، ومنها الضعيف اللين ، فقد اقتضت حكمة الله تعالى خلق صيوان الأذن غضروفيا بين العظم واللحم ، وجعلت فيه طيات وليات ليتلقى أمواج الصوت ، ويعكسها من طية الى لية حتى يوصلها الى الصماخ .
والصماخ أيضا خلق معوجا متقوسا نحو الأعلى ، وجعل فى فمه سياج من الشعر وفى باطنه دبق (١) أصفر شمعى .

وحكمة ذلك : أن الهواء الذى يحمل الصوت قد يكون عنيفا وقد يصاحبه غبار وتراب وحشرات ، فيتقى الصماخ بتموجه عنف صدمة الهواء ، وبالشعر وبالدبق يتقى المؤذيات من الغبار والحشرات ، فلا يصل شىء من ذلك الى غشاء الطبلة الرقيق .

وأيضا لما كانت بعض الأصوات همسا وخافتة فقد جعل الصماخ على شكل كهف مملوء بالهواء لتقوية الصوت ومضاعفته ، يرجع الصدى على النحو الذى يلاحظ فى الكهوف والمغارات من جلجلة الصوت الضعيف ورجع الصدى .

كما اقتضت الحكمة الالهية خلق غشاء مشدود فى داخل الأذن يشبه الطبل حتى سمى " بطبلة الاذن " .
وذلك لأن هذا الشكل أفضل موصل للصوت كما يلاحظ ذلك فى الطبل فانك تسمع القرعة البسيطة عليه من بعد " (٢) .

كل هذه الأسرار فى تركيب جهاز السمع العجيب فهل يكون هذا التكوين العجيب البديع بلا حكمة ولا قصد ؟ حاشا وكلا ، بل ذلك لحكم مقصودة .

---

(١) الدبق : شىء لزج داخل الأذن يشبه الغراء
(٢) عن كتاب نديم الجسر قصة الايمان من ص ٩٤ ، ٩٥ باختصار .

فقد علم الله تعالى الذى خلق هذا الجهاز الظروف التى يواجهها فأعده على هيئة تجعله يؤدى وظيفته دون أن تحول هذه الظروف بينه وبين تلك الوظيفة التى خلق لها ؛ فتبارك الله رب العالمين .

اللســـــان

ولنتأمل الحكمة فى خلق اللسان الذى يقوم بوظائف كثيرة ، وأهمها النطق والذوق . يقول الشيخ نديم الجسر فى شرح وظائف اللسان :

" كل عضو من أعضاء الحس له وظيفة واحدة الا اللسان . فالعين للبصر والاذن للسمع ، والانف للشم. أما اللسان فقد شاءت حكمة الله أن يكون :

آلة للذوق .

وآله للمضغ والبلع .

وآلة للحس واللمس .

وآله للتكلم ." (١)

ومن أجل أن يكون اللسان آلة للذوق ، اقتضت حكمة الله أن يفرش سطحه وجانباه بحليمات تمتص الطعوم ، وتؤديها الى الأعصاب المنتشرة فى باطنها .

ولما كانت الحليمات لا تمتص الطعوم الا اذا كانت محلولة ذائبة ، واللسان رطبا فقد زود اللسان بغشاء مخاطى فيه غدد تفرز المخاط الخاص باللسان .

كما زود اللسان من تحته بغدة تفرز اللعاب ، زيادة على ما تفرزه الغدد اللعابية الأخرى ، ولولا ذلك ما استطاع اللسان أن يتذوق الطعوم .

(١) نديم الجسر قصة الايمان ص ٢٠٤ باختصار

ومن أجل أن اللسان آلة للمضغ والبلع .

فقد اقتضت الحكمة الالهية أن تكون عضيلة قوية نشيطة لعوبا ولولا ذلك ما تم مضغ ولا بلع .

فاللسان هو الذى يلاعب اللقمة ، ويلوكها ، ويعجنها باللعاب حتى اذا اكتمل مضغها ، وأصبحت صالحة للبلع لفها بلعابه وضغطها بين سطحه وسقف الحلق ، ودفعها بقوته ، وزلقها حتى تعبر قوس اللهاة ، وبعد ذلك يستمر البلع تلقائيا .

ومن أجل أن اللسان آلة للتكلم : فمن المعلوم أن الأصوات تخرج من الحنجرة ولأن الحنجرة لا تستطيع توليد الحروف كلها ، بل يقتصر عملها على توليد الحروف الصوتية المعروفة بحروف العلة ، دون الحروف الأخرى المعروفة بحروف الصحة التي لا بد لتوليد من تقطيع مجرى الهواء الذى يحمل الصوت من الحنجرة .

فقد اقتضت الحكمة الالهية أن يخلق اللسان مع الشفتين ، ليكون وسيلة لتقطيع الهواء واخراج حروف الصحة .

ولولا ذلك لكنا كالحيوانات نطلق أصواتا نمدها مدا يشبه العواء والنعيق والصهيل والنهيق " . (١)

هذه بعض وظائف اللسان التى تمثل الحاسة الثالثة حاسة الذوق التى بها نميز بين طعم المأكولات وطعم المشروبات .

ولولاها لما تمتعنا بلذة أثناء أكل الطعام الشهى ، وأثناء شرب الماء الزلال . بل كنا لا نفرق بين طعم السكر والعلقم .

---

(١) نديم الجسر ، قصة الايمان من ص ٤٠٢ — ٤٠٤ باختصار

فسبحان من أتقن صنع اللسان ، وجعله يقوم بعدة وظائف ذات أهمية كبرى في حياة الانسان والحيوان .

فهل يسوغ لعاقل أن يدعي أن الله تعالى لما خلق اللسان لم يكن خلقه لحكم مقصودة .

لو كان كذلك لم يكن الله ليمتن علينا بخلقه وتزويدنا به كما في قوله تعالى : " ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين " (١)

الحكمة من ايجاد الانسان

اذا كان كل عضو في جسم الانسان لم يخلق الا لحكمة وله وظيفة يؤديها . فمما لا شك فيه أن الانسان ككل لا بد أن يكون قد خلقه الله لحكمة بالغة ، ولم يخلقه عبثا بدون غاية . كما قال تعالى منكرا على من زعم ذلك : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون " (٢)

ولقد بين الله تعالى في كتابه الكريم تلك الحكمة التي خلق الانسان من أجلها فقال : " وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون " (٣) .

أي انما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي اليهم " قاله ابن كثير . وعن الربيع بن أنس " الا ليعبدون " أي الا للعبادة (٤)

---

(١) سورة البلد آية ٨ ، ٩
(٢) سورة المؤمنون آية ١١٥
(٣) سورة الذاريات آية ٥٦ ، ٥٧
(٤) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ج ٤ ص ٢٣٨

ولكى تتحقق هذه الغاية التى خلق الناس لأجلها فقد اقتضت حكمته أن يزود الانسان بما يؤدى اليها فقد أنعم عليه بالعقل والادراك والتفكير ، كى يفرق بين طريقى الخير والشر ويختار ما هو أنفع له فى عاجله وآجله . ومع هذا اقتضت حكمة الله البالغة ورحمته الواسعة الا يكل الناس الى عقولهم ، بل بعث اليهم رسلا يدعونهم الى عبادته وحده ويحذرونهم من عبادة غيره ، ويهدونهم الى صراط الله المستقيم .

وأيد هؤلاء الرسل بالبينات والمعجزات الدالة على صدقهم حتى لا يكون لأحد عذر فى عدم الايمان بالله وحده الى جانب هذه الآيات الآفاقية والأنفسية الدالة على أنه وحده المستحق للعبادة .

وقد يقال :

اذا كانت الغاية من خلق الناس هى عبادة الله وحده ، فلماذا لم تتحقق هذه الغاية ، حيث نرى أكثر الناس مشركين أو ملحدين لا يؤمنون بالله ؟

والجواب عن ذلك :

أن الغاية هى الأمر بعبادة الله وحده وهذا متحقق ، فقد أمر الله العباد وكلفهم بعبادته فمن عبده وحده دخل الجنة . ومن كفر فجزاؤه جهنم التى أعدت للكافرين .

أو " اللام " فى قوله تعالى " الا ليعبدون " بمنزلة الارادة الدينية الشرعية ، فالمعنى الا مريدا عبادتى ، ولا يلزم من هذه الارادة تحقق المراد ، وليس ارادة كونية حتى يلزم تحقق ما أراده سبحانه . (١)

---

(١) تنقسم الارادة عند السلف الى قسمين ارادة كونية قدرية وارادة شرعية دينية . فالارادة الكونية شاملة لجميع ما يقع فى الكون ويحدث ولا يمكن أن تتخلف ، أما الارادة الشرعية الدينية فهى بمعنى المحبة والرضا وهى

الحكمة فى اهباط آدم عليه السلام الى الأرض

قال الله تعالى :

وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" . (١)

لقد اقتضت حكمة الله أن يكون أكل آدم من الشجرة سببا لاهباطه وذريته تبعا له الى الأرض ، دار الابتلاء والعمل والتكليف .

وكان ذلك الاهباط لحكم جليلة أشار الله تعالى الى بعضها فى القرآن الكريم ومن هذه الحكم :

أولا : أنه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم ، وليست الجنة دار تكليف بل دار إنعام فأهبطهم لأجل ذلك الى الأرض وعرضهم بذلك للثواب العظيم الذى لا ينال إلا باطاعة الأمر واجتناب النهى .

ثانيا : أنه تعالى له الأسماء الحسنى فهو الغفور الرحيم ، العفو" الحليم ،

= ملازمة للأمر فانه تعالى لا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه "
أنظر مجموعة الرسائل الكبرى رسالة الارادة والأمر ج ١ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨

(١) سورة البقرة : الآيات من ٣٥ - ٣٩

الخافض الرافع ، المعز المذل ، المحيى المميت . ولا بد من ظهور آثار هذه الاسماء .

فاقتضت حكمته سبحانه أن يسكن آدم وذريته دار الابتلاء ليظهر عليهم فيها آثار أسمائه الحسنى ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، ويحيى ويميت . الى غير ذلك مما فيه ظهور آثار هذه الاسماء الحسنى .

ثالثا : أنه جلت حكمته خلق آدم أبا البشر عليه السلام من قبضة من طين الارض طيبها وخبيثها ، وسهلها وحزنها ، فعلم الله أن فى ظهره من الذرية من لا يصلح للاقامة فى دار كرامته فأنزله الى الارض التى هى ميدان للصراع بين الخير والشر واستخرج ذريته من صلبه / ويسر كلا منهم لما خلق له .
ثم ميزهم بعد ذلك فى دارين دار الطيبين وهى الجنة التى لا تصلح مقرا الا للطيبين ، ودار الخبيثين وهى النار التى لا تصلح مقرا الا للخبيثين . كما قال تعالى " ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون " (١)

رابعا : لما كان الله تعالى يحب الصابرين ، ويحب المحسنين والتوابين ، والمتطهرين والشاكرين . فقد اقتضت حكمته اسكان آدم وذريته دارا يأتون فيها بهذه الصفات فينالون بذلك أعلى الكرامات ، وهى محبته لهم فكان اسكانهم الارض من أعظم النعم عليهم .

خامسا : ومن ذلك أنه عز وجل أراد أن يظهر لملائكته كمال علمه وحكمته ،

---

(١) سورة الانفال آية ٣٧

فانه حين أخبر الملائكة بقوله : " انى جاعل في الارض خليفة " يعنى آدم وذريته ، قالت الملائكة : " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " فأجابهم بقوله : " انى أعلم ما لا تعلمون " (١) .

فأظهر لهم ذلك العلم بأن جعل فى الارض من خواص خلقه من رسله وأنبيائه وأوليائه من يباهى بهم ملائكته لتقربهم اليه بالعبادات ، وبذل نفوسهم فى محبته ورضاه ، وتسبيحهم له آناء الليل وأطراف النهار مع معارضات الهوى والشهوة والشيطان .

بخلاف الملائكة فانهم يعبدون الله من غير معارض ولا شهوة تعتريهم . فأظهر بذلك لملائكته علمه وحكمته فى جعل آدم وذريته خلفاء فى الارض .

سادسا : لقد اقتضت حكمته سبحانه خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعى الشهوة والفتنة ، وداعى العقل والعلم ، اذ كونه من تراب ونفخ فيه من روحه ، فخلق فيه العقل والشهوة وكل منهما داع الى مقتضاه ليتم بذلك مراده سبحانه ، ويظهر لعباده عزته فى جبروته ، وحكمته فى رحمته ، ولطفه فى سلطانه . فكان لا بد من اسكانهم فى دار الابتلاء ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا .

ولو شاء سبحانه لخلقهم كالملائكة بلا شهوات ، وأبقاهم فى دار كرامته لكنهم حينئذ يكونون خلقا آخر غير بنى آدم ، الذين جمع لهم بين العقل الذى تمتاز به الملائكة ، وبين الشهوة التى هى طبيعة الارض التى خلقوا منها . (٢)

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠

(٢) انظر فى ذكر الحكمة من إهباط آدم عليه السلام مفتاح دار السعادة لابن القيم ج ١ ص ٣ — ٥

الفصل الثالث

مظاهر من حكمة الله في شرعه

كما تتجلى حكمة الله في مخلوقاته وآياته الكونية ، فانها تتجلى في أمره ونهيه وما شرعه لعباده على لسان رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

فهو سبحانه وتعالى لا يأمر عباده الا بما فيه صلاح وخيرلهم ولا ينهاهم الا عما فيه مضرة ومفسدة تلحق بهم .

واذا تأملت شريعة الله وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة أوالراجحة ودرء المفاسد الراجحة .

والشرائع السماوية كلها متفقة في أصولها ، وجمال هذه الشرائع ظاهر ظهورالشمس ، ومركوز في العقول .

ولو وقعت على خلاف ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة .

فالمصلحة التي روعيت في التشريع ليست على ما تهواه الانفس وتشتهيه وانما هي باعتبارما يحقق خير الناس في دنياهم وآخرتهم . قال تعالى " ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن " (١) .

وأحكام الشريعة الاسلامية معللة بالحكم والمصالح ، وقد اضطر منكروا التعليل

---

(١) سورة المؤمنون آية ٧١

من أهل الكلام الى القول به في علم أصول الفقه ليتأتى لهم القول بالقياس وأنه من الأدلة الشرعية .

يقول الامام الشاطبى رحمه الله في الموافقات :

" إن وضع الشرائع انما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معا " .

الى أن قال :

" وقد وقع الخلاف فيها في علم الكلام ، وزعم الرازى أن أحكام الله ليست معللة بعلة ألبتة ، كما أن أفعاله كذلك . وأن المعتزلة اتفقت على أن أحكامه تعالى معللة برعاية مصالح العباد ، وأنه اختيار أكثر الفقهاء المتأخرين .

ولما اضطر (الرازى) في علم أصول الفقه الى اثبات العلل للأحكام الشرعية ، أثبت ذلك على أن العلل بمعنى العلامات المعرفة للأحكام خاصة " .

ثم قال :

والمعتمد انما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراء لا ينازع فيه الرازى ولا غيره " . (١)

وسنعرض هنا مظاهر من حكمة الله تعالى فيما شرع لعباده من عبادات ومعاملات .

ونبدأ بعبادة الصلاة التي هي عمود الاسلام ، والتي اتفقت الشرائع السماوية كلها على الأمر بها .

حسن الصلاة وأسرارها العظيمة :

لقد شرع الله عبادة الصلاة في الاسلام على أحسن كيفية يتصورها العقل

---

(١) الشاطبى ، الموافقات في أصول الشريعة ج ٢ ص٦

وعلى أكمل الوجوه وأحسنها ، وذلك لتضمنها تعظيم الله تعالى بأنواع الجوارح من نطق اللسان وعمل اليدين والرجلين والرأس وحواسه وسائر أجزاء البدن .

فكل عضو يأخذ دوره في حركات الصلاة المتعددة كما أن الحواس الباطنة تأخذ حظها وأهمها القلب فهو يقوم بواجب العبودية فيها وهي مشتملة على الثناء والحمد والتسبيح والتكبير والشهادة لله بأنه رب كل شيء ومليكه ، وأنه وحده المستحق لأن يعبد ويركع له ويسجد .

قال صاحب حجة الله البالغة في الكلام عن أسرار الصلاة :

" وأصل الصلاة ثلاثة أشياء :

أن يخضع القلب عند ملاحظة جلال الله وعظمته .

ويعبر اللسان عن تلك العظمة وذلك الخضوع أوضح عبارة .

وأن يؤدب الجوارح حسب ذلك الخضوع .

ومن الأفعال التعظيمية أن يقوم بين يديه مناجيا ، ويقبل عليه مواجهــــا ، يستشعر ذله وعزة ربه فينكس رأسه اذ من الأمر المجبول عليه قاطبة البشر أن رفع العنق آية التيه والتكبر ، وتنكيسه آية الخضوع والاخبات " . (١)

والمسلم يتطهر في اليوم والليلة خمس مرات استعدادا للدخول في الصلاة والوقوف بين يدي ربه خاشعا مستحضرا عظمته ، عالما أنه لا تخفى عليه خافية ، وأنه مسئول بين يديه في يوم لا ينفعه فيه الا ما قدم من عمل صالح ، هذا كلــه ينشئه على مراقبة الله كما يعوده على التواضع فلا يتعالى على الناس ، لأنه يقـف في الصف مع الغني والفقير والكبير والصغير ، يؤدي معهم حركات واحـــدة

---

(١) الدهلوي : الشاه ولي الله : حجة الله البالغة ج ١ ص ١٥٢ باختصار

فالكل يحني ظهره ويضع جبهته على الأرض تعظيما لربه ، والكل يناجي ربه يرجو رحمته ويخشى عذابه .

بل ان الصلاة لتدفعه الى مراعاة حق غيره ، والقيام بما يجب عليه تجاه الآخرين ، والبعد عما يضر الناس ، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ولذا فان من يحافظ على الصلاة ويؤديها على وجهها تجده أقرب الناس الى فعل الخير وأبعدهم عن فعل الشر . ومن يترك الصلاة ويستهين بحقها فانه أقرب الناس الى فعل السوء والظلم وأبعدهم عن فعل الخير . قال تعالى " ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر " . (١)

واذا كان هذا هو أثر الصلاة في سلوك الفرد فانها أيضا من أهم الروابط التي تربط بين الجماعة المسلمة اذ كان الشأن فيها أن تؤدى في جماعة في مكان أعد لها هو المسجد وذلك مما يدعو الى التعارف والتآلف والتعاون بين جماعة المسلمين .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله :

" الصلاة هي هذه الرابطة الروحية المثلثة بين المصلي وبين ربه ، وبينه وبين امامه ، وبينه وبين سائر المؤمنين .

هذه الرابطة الروحية كثيرا ما تتمثل في صور مجسمة في جماعة حاضرة ، نراها رأي العين ، ونحس فيها تزاحم المناكب وتجاوب الأصوات ، وتناسق الحركات والسكنات حتى اذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار ، فانها لن تغيب عن البصائر ، واذا تجردت من الأشباح ، فانها لتبقى ماثلة في القلوب والأرواح . (٢)

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥

(٢) دكتور محمد عبد الله دراز ، نظرات في الاسلام ص ٥١

الحكمـــة فـــى الزكـــــــاة

الزكاة من العبادات المالية وهى الركن الثالث من أركان الاســـلام الخمســـة . وفيها من الأسرار والحكم مايجعلها ضرورية التطبيق فـــى المجتمعات الانسانية .

فهى تؤخذ من أموال الأغنياء فى البلد وترد على فقرائهم ، وهى بذلك تنظم العلاقة بين الأغنياء والفقراء .

فانها طهرة للغنى وسبب لحفظ ماله وزيادته واغنائه ، وهى تنتزع الحقد من قلب الفقير على الغنى فتتوطد المحبة والأخوة بين أفراد المجتمع المسلـــم الذى يطبق فريضة الزكاة .

وليس فى الزكاة ارهاق للغنى ، فهى جزء يسير يؤخذ من ماله هو ربع العشر فى النقدين ، ونصف العشر أو العشر فى الزروع يدفعه المزكى طيّبة بــه نفسه على ما هو مفصل فى كتب الفقه .

والزكاة تعوّد المزكى على الكرم والبذل وتخرجه من الشح والبخـــل ، كما قال تعالى " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم " . (١)

والزكاة بنظامها المعروف فى الاسلام مما امتازت به شريعة الاســـلام اذ كانت خاتمة الرسالات مشتملة على محاسن الشرائع السابقة وزيادة عليها . " فلم تتضمن أى شريعة أخرى سماوية أو وضعية تشريعا كتشريع الزكاة فـــى

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٣

الاسلام التي هي ضريبة مقدسة يبذلها الغني ليستفيد بها الفقير ويفيد منها المجتمع والدولة حتى لا يعيش مسلم محروما ، ولا يبقى غني شحيحا جشعا وهذا هو الضمان الاجتماعي الذي جاءت به شريعة الاسلام قبل أن تعرفه الأنظمة الحديثة بأكثر من ألف عام " (١) .

يقول الامام محمد عبده في بيان الحكمة من الزكاة :

" فرض الاسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الغني على الفقير ، سدا لحاجة المعدم ، وتفريجا لكربة الغارم ، وتحريرا لرقاب المستعبدين ، وتيسيرا لأبناء السبيل ، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الأموال في سبيل الخير ، وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ، ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين ، وأي دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا (٢) .

واجمال القول في الحكم والأسرار في فريضة الزكاة أنها :

١ - امتحان صدق المسلم في اسلامه فان التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد ، والتوحيد باللسان سهل على الانسان ، وانما يظهر صدق المحبة لله ودرجتها بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة بالغريزة عند الناس ، فامتحنوا إظهارا لصدق دعواهم بالتنازل عن المال المحبوب في سبيل مرضاته تعالى ، كما قال تعالى :

---

(١) انظر كتاب الدكتور محمد عبد الله دراز ، نظرات في الاسلام ص ٦٢ ومابعدها

(٢) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٥٨ ، ١٥٩

" لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " (١) .

٢ — التطهير من صفة الشح التي هي من المهلكات كما قال تعالى :

" ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " (٢) .

فالزكاة تزيل صفة البخل من النفس وتعودها على البذل والاحسان ، فحب الشيء لا ينقطع الا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير اعتيادا . والزكاة بهذا المعنى طهرة للمزكي ، أي تطهره من البخل المهلك ، وتكون طهارته بقدر سماح نفسه ، واخلاصه في ذلك لله تعالى .

٣ — أن في أداء الزكاة شكرا لنعمة الله تعالى على العبد فهو عز وجل المتفضل على عبده بما أنعم عليه في نفسه وماله ، ولذا فقد جعلت الزكاة قسمين زكاة مال وزكاة بدن التي هي زكاة الفطر . فالمزكي حين يدفع الزكاة للفقراء المعدمين يؤدي شكر نعمة الله عليه حيث رزقه من المال ما يغنيه عن مذلة الفقر والسؤال . (٣)

٤ — مواساة الفقراء وسد حاجتهم انتزاعا لأحقادهم على الأغنياء وتوطيدا للمحبة بين أفراد المجتمع . وبذلك : يأمن الغني على نفسه وماله ويجد الفقير ما يحتاج اليه في حياته .

أسرار الصيام وحكمه

قال الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون " . (٤)

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٢
(٢) " الحشر آية ٩
(٣) انظر احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ج ١ ص ٢٠٨ و ٢٠٩
(٤) سورة البقرة آية ١٨٣

ان الصيام عبادة بدنية وروحية ، وقد جاءت الشريعة الاسلامية بالصيام على صفة تميزه عما هو عليه فى الشرائع السابقة فان الصائم يمسك عن شهوات نفسه من طلوع الفجر الى غروب الشمس لمدة شهر كامل هو شهر رمضان المبارك .

وهذه الكيفية للصيام كفيلة بأن تكف النفس عن التمادى فى شهواتها وتخرجها عن شبه البهائم الى شبه الملائكة المقربين .

" ومنزلة الصيام من أسمى مراتب التقوى وأكرمها عند الله تعالى لأن العبادات الأخرى لها جوانب تحببها الى النفوس الكريمة ، ففى الصلاة مثلا حلاوة المناجاة ، وفى الزكاة أريحية الجود والكرم ، أما الصيام فانه ليس فيه معاونة من طبع الانسان بل فيه على العكس معاندته ومقاومته ، فكان أقرب العبادات الى الخلوص من الشوائب والى صدق الايمان .

ولعله من أجل ذلك خص الصيام بمزيد من الثواب الذى يتولاه الله بغير حساب ، كما ورد فى الحديث القدسى . " كل عمل ابن آدم له الا الصيام هو لى وأنا أجزى به " (١) . ومصداق ذلك قوله تعالى " انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب " . (٢) ، (٣)

وناهيك بحسن هذه العبادة التى تكسر الشهوة ، وتحى القلب وتزهده فى شهوات الدنيا ، وترغبه فى نعيم الآخرة .

كما أنها تذكر الغنى بأخيه الفقير المحتاج حين يحتضره ألم الجوع

---

(١) رواه مسلم باب فضل الصيام ج ٢ ص ٨٠٦
(٢) سورة الزمر آية ١٠
(٣) انظر كتاب نظرات فى الاسلام للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٠

فيعطف على الفقراء ، ويمد يد المساعدة لهم ، ولذلك ندبت الشريعة الاسلامية الى البذل والاحسان في شهر الصوم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في شهر رمضان .

وما استعان العبد بشيء على تقوى الله وحفظ حدوده وكسر شهواته بمثل الصوم ، ولذا فقد وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم علاجا للشهوة العارمة لدى من لم يستطع التزوج من الشباب ، كما قال صلى الله عليه وسلم " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء " (١)

ونجمل فوائد الصيام الروحية فيما يلي :

١ - تطهير النفس وصقلها بطاعة الله تعالى وتعويدها على ترك شهواتها طلبا لمرضاة الله تعالى .

٢ - اعداد النفس لتحمل الشدائد والمشقات فليس المرء في مأمن من زوال النعمة .

وقد تمر به أوقات عصيبة أثناء الجهاد في سبيل الله والتحام المعارك فيتعرض الانسان للجوع والعطش ساعات وأياما .

لذلك فان عبادة الصيام تؤهل المسلم للصبر على الجوع والعطش وتعوده تحمل المشاق .

٣ - تقوية الايمان ، والبعد عن الرياء بممارسة هذه العبادة التي هي سر بين العبد وربه ، لأن سائر العبادات ظاهرة للناس الا الصيام فليس من رقيب على الصائم الا الله تعالى ، فاذا ما ترك الانسان

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ج ٩ ص ١٠٦ مطبوع مع فتح الباري

الطعام والشراب وسائر الشهوات طاعة لربه ،فانه بذلك تصفو روحه ، ويزداد قربه من الله تعالى كماقال تعالى مختتما آية الصوم " لعلكم تتقون " ٠ (١)

وبعد ذكر هذه الفوائد يجدربنا أن نورد فوائد الصوم الطبية ونستعرض ما قاله الطب الحديث فى أثر الصيام على البدن ٠

فوائد الصوم الطبية :

نقل صاحب كتاب مناهل العرفان مقالا للمرحوم الدكتورعبد العزيز اسماعيل تحت عنوان " الطب وصيام شهر رمضان " قال فيه :

" لقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات كثيرة ، وهوالعلاج الوحيد للوقاية من أمراض شتى ، فللعلاج يستعمل فى :

١ ـ اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمرفى المواد الزلالية والنشوية ، وهنا ينجح الصيام وخصوصا (مع) عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كمافى صيام رمضان ، ويمكن أخذ الغذاء المناسب فى حالة التخمر ،وهذه الطريقة هى أنجح طريقة لتطهيرالأمعاء ٠

٢ ـ زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء ، وقلة الحركة ٠ فالصيام أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الافطار فى (تناول) الطعام ،والاكتفاء بالماء فى السحور ٠

٣ ـ زيادة الضغط الذاتى ، وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصا اذا

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٣

كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ ـ البول السكري : ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجا نافعا ، اذ أن السكر يهبط مع قلة السمن . ويهبط السكر في العادة بعد الأكل بخمس ساعات الى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف ، وبعد عشر ساعات الى أقل من الحد الطبيعي بكثير .

ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج لهذا المرض حتى بعد ظهور الانسولين ، خصوصا اذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعي ، ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الانسولين غير الصيام .

٥ ـ التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ ـ أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ ـ التهاب المفاصل المزمنة خصوصا اذا كانت مصحوبة بسمن .

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج الى ارشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي كتب على المسلمين انما كتب على الأصحاء .

وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصا الأمراض التي مر ذكرها تحت رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ .

وهذه الأمراض كلها تبتدئ في الانسان تدريجا بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب

لم يتقدم بعد الى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ، ولكن من المؤكد طبيا أن الوقاية من كل هذه الأمراض هى فى الصيام (١)

أســـرار الحـــــج وحكمه

الحج الى بيت الله هو خامس أركان الاسلام ، وقد فرضه الله تعالـــى على كل مسلم ومسلمة فى العمر مرة لمن استطاع اليه سبيلا كما قال تعالى : " وللـــه على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين" (٢) وقد فرض الحج فى السنة التاسعة للهجرة •

وهو عبادة معروفة فى الشرائع السماوية السابقة ، فهذا أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام يخاطبه الله بقوله : " وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيـــام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير"(٣)

وفى مناسك الحج حكم وأسرار ومنافع كثيـــرة منها ما هو ظاهر ومنها مــا قد يخفى وجه الحكمة فيها على كثير من الناس ولكن مجرد تسليم المسلم لأمر اللـــه وتنفيذه فيه حكمة بالثقة لله حيث يتبين الصادق فى ايمانه من غيره ، وكفى بذلـــك حكمـــــة •

وقد اقتضـــت ارادة الله أن يجعل البيت المعظم قياما للناس وعنوانـــــا

---

(١) نقلا عن كتاب مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ عبد العظيم الزرقانى ج ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨٢ باختصار

(٢) سورة آل عمران آية ٩٧

(٣) " الحج آية ٢٧ ، ٢٨

لوحدة المسلمين فهو قبلتهم فى صلاتهم ومهوى أفئدتهم ٠ قال تعالى :

" جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس" (١) ٠

قال ابن القيم :

" وقد ورد عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى معنى كونها (أى الكعبة) قياما للناس أن بيت الله عمود العالم الذى عليه بناؤه فلو ترك الناس كلهم الحج سنة لخرت السماء على الأرض " (٢) ٠

ولما كان من أبرز علامات المحبة زيارة المحبوب واستزارته فقد طلب الله من عباده زيارة بيته لينالوا كرمه وحسن ضيافته ٠ ولكل ضيف كرامة ، وكرامة الحجيج الوافدين الى بيت الله مغفرته لذنوبهم ورضاه عنهم ، وقد بشرهم بذلك على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال : " من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه " (٣) ٠

فأى كرامة أكبر من هذه الكرامة ، وأى ضيافة أحسن من هذه الضيافة التى يترتب عليها السعادة الدائمة فى الدار الآخرة ٠

ونشير هنا الى بعض الحكم فى فريضة الحج على سبيل الاجمال :

١ – ان الحج رمز وحدة المسلمين جميعا على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وألوانهم حيث يجتمعون من قاصى الأرض ، ودانيها فى وقت واحد وعلى صعيد واحد لهدف واحد هو تلبية دعوة الله وطلب مغفرته ورضاه ٠

---

(١) سورة المائدة آية ٩٧

(٢) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص ٤

(٣) رواه ابن ماجه ، باب فضل الحج والعمرة ج ٢ ص ٩٦٤ ورواه النسائى فى فضل الحج ج ٥ ص ٨٥

٢ — الحج مظهر عطى من مظاهر المساواة بين المسلمين ، اذ يرتدون زيا واحدا ويؤدون جميعا عملا واحدا على قدم المساواة متزاحمين بالمناكب لا تميز لغنى على فقير مما يظهر المساواة الحقيقية التى ينادى بهـا الاسلام ، وتضمحل معها شوائب العنصرية الممقوتة .

٣ — فى الحج تتهيأ أكبر فرصة للتعارف والتعاون بين الأمة الاسلامية . وما هذه المؤتمرات السنوية التى ينتظم عقدها فى أيام الحج فى المشاعر المقدسة ، والتى يجتمع فيها صفوة العلماء والمفكرين من المسلمين لبحث شئونهم وعرض مشكلاتهم وتقديم الحلول الممكنة الا جزء من منافع الحج .

٤ — وأيام الحج مناخ مناسب لنجاح الدعوة الى الله وتذكير المسلمين بواجباتهم تجاه ربهم ودينهم واخوانهم . حيث يجتمع أكبر عدد ممكن من المسلمين القاطنين فى أجزاء كثيرة من أقطار الأرض قد خلفوا وراءهم كل مشاغل الحياة ، وأقبلوا بكل قلوبهم على ربهم فيكونون بذلك مهيئين لقبول دعوة الخير والحق .

٥ — وفى كل شعيرة من شعائر الحج عظات وأسرار وحكم تظهر لمن تأملها :

— فارتداء ثياب الإحرام التى تتكون من ازار ورداء أبيضين رمز للتجرد من ملذات الدنيا وزخارفها والاقبال على الله والاشتغال بذكره ومناجاته .

— والاجتماع الكبير على صعيد عرفات صورة مشابهة لاجتماع الخلائق يوم الحشر فى عرصات القيامة .

ـ أما رمى الجمار فهو يرمز الى اعلان الحرب على ابليس وجنده ، وفيه أيضا تأسى بأبينا ابراهيم عليه السلام اذ رمى ابليس في مكان الجمرات ، حين أراد أن يثبطه عن طاعة أمر الله .

الى غير ذلك من شعائر الحج كالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة التى منها ما هو ظاهر الحكمة ، فضلا عن الحكم التى استأثر الله بعلمها ، ومنها ما هو من الأمور التعبدية التى يجب الاقرار بها والتسليم لها والايمان بموافقتها للصواب والحكمة ، فان الأمور التعبدية هى ما خفى وجه الحكمة فيها ، وليس ما خلا عن الحكمة .

الحكمة من تشريع الجهاد فى الاسلام

بعد أن تبين لنا بعض الأسرار والحكم فى الصلاة والزكاة والصوم والحج وتبين أن الله سبحانه لم يأمر بها ويوجبها على عباده الا لما تضمنته من منافع وفوائد دنيوية وأخروية .

فسنعرض هنا للحديث عن فريضة الجهاد فى الاسلام والحاجة الى تشريعه ومظاهر من الحكمة والرحمة فيه فنقول وبالله التوفيق :

مشروعية الجهاد :

الجهاد فى سبيل الله من أفضل الأعمال بعد الايمان بالله ورسوله ، بل هو فريضة على جميع المسلمين اذا دهمهم العدو فى أرضهم .

وقد وردت نصوص كثيرة فى الحث على الجهاد والترغيب فى الاستشهاد فى سبيل الله . قال تعالى :

" كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (١) .

وقال تعالى :

" ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين " (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ؟ قال ايمان بالله ورسوله ، قيل ثم ماذا ؟ قال الجهاد فى سبيل الله ، قيل ثم ماذا ؟ قال حج مبرور " . (٣)

الغاية من الجهاد فى الاسلام :

" ان السلام مبدأ من المبادئ التى عمق الاسلام جذورها فى نفوس المسلمين فأصبحت جزءا من كيانهم وعقيدة من عقائدهم . ولفظ الاسلام — الذى هو عنوان هذا الدين مأخوذ من مادة السلام ، لأن السلام والاسلام يلتقيان فى توفير الطمأنينة والأمن والسكينة .

ورب هذا الدين من أسمائه " السلام " ، لأنه يؤمن الناس بما شرع من مبادئ وبما رسم من خطط ومناهج .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦
(٢) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
(٣) رواه البخارى فى كتاب الايمان ص ٧٧ مطبوع مع فتح البارى

وحامل هذه الرسالة هو حامل راية السلام ، لأنه يحمل الى البشرية الهدى ، والنور ، والخير والرشاد .

ويحدث القرآن عن رسالته فيقول :

" وما أرسلناك الا رحمة للعالمين " (١) وتحية المسلمين التى تؤلف القلوب وتقوى الصلات وتربط الانسان بأخيه الانسان هى السلام " . (٢)

نعم ان الاسلام دين المحبة والسلام ، ولم يشرع القتال الا بعد أن لاقى المسلمون العنت والأذى وبعد أن أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فأذن الله لهم بقتال الكفار الذين اعتدوا عليهم كما قال تعالى " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله " . (٣)

اذا فالحرب فى الاسلام لا تكون على سبيل الاعتداء كما قال تعالى : وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين "(٤)

كما لا تكون لاكراه الناس على العقيدة كما قال تعالى " لا اكراه فى الدين " (٥) .

وأيضا فانها لاتكون لمجرد حب السيطرة والاستعلاء واستعباد الشعوب كما يفعل المستعمرون فى العصور الحديثة ، قال تعالى " تلك الدار الآخرة

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧
(٢) سيد سابق ، فقه السنة ج ١١ ص ٥ ، ٦ باختصار
(٣) سورة الحج آية ٣٩ ، ٤٠
(٤) سورة البقرة آية ١٩٠ (٥) سورة البقرة آية ٢٥٧

نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ٠(١)

"حالات القتال المشروعة :

وانما يكون القتال المشروع فى الاسلام للأغراض الآتية :

الحالة الأولى :

الدفاع عن النفس، والمال، والعرض، والوطن ضد من يعتدى عليها ، ولا شك أن ذلك حق يقره العقل ٠ وقد ورد فى الحديث عن سعيد بن زيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد " (٢)

الحالة الثانية :

حماية الدعوة الى الله اذا وقف أحد فى سبيلها لتكون كلمة الله هى العليا فقد أراد الله تعالى لدين الاسلام الذى هو خاتم الأديان ، بل هو دين الله الحق الذى جاءت به الرسل ، أراد الله أن يظهره على جميع الأديان فانه ناسخ لجميع الأديان كما قال سبحانه " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون "(٣) ٠

(١) سورة القصص آية ٨٣
(٢) رواه أبو داود فى سننه كتاب السنة ج ٥ ص ١٢٨ ورواه الترمذى فى سننه كتاب الديات ج ٤ ص ٣٠ وقال (حسن صحيح)
(٣) سورة التوبة آية ٣٣

الحالـة الثالثـــة :

الاغاثة الواجبة لشعب مسلم اعتدى عليه أو حليف للمسلمين اعتدى عليـــه وهو عاجز عن الدفاع عن نفسه كما قال تعالى : " وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا مـــن هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنـــك نصيرا " (١) ، (٢) .

والحروب فى الاسلام روعيت فيها تعاليم يتبين منها ما عليه المسلم من رحمة وبعد عن المآرب الدنيوية . ومن هذه التعاليم :

١ - انذار أهل البلد التى ستفتح ، وتخييرهم بين الدخول فى ديـــن الاسلام ، أو دفع الجزية مقابل حماية المسلمين لهم فان قبلوا واحدا من الأمرين لم يقاتلوا ، وان رفضوا كلا الأمرين فحينئذ يقاتلون .

٢ - عدم قتل النساء والشيوخ والصبيان والرهبان ونحوهم ممن لا يحمل سلاحا على ما هو معروف فى كتب الفقه .

ومن هنا نرى أن الغاية من تشريع الجهاد فى الاسلام غاية نبيلة وسا ميـــة يقرها العقل السليم .

وأن الحروب فى نظر الاسلام لا يلجأ اليها الا عند عدم نجاح الوسائـــل السلمية مع الأعداء .

والى جانب الذود عن النفس والمال والعرض والدين نجد أن الله تعالـى

---

(١) سورة النساء آية ٧٤
(٢) انظر كتاب " نظرات فى الاسلام " للدكتور محمد عبد الله دراز ص٢٠٣، ٢٠٤

شرع الجهاد اظهارا للصادق في ايمانه فقد كلف الله المؤمنين بالجهاد ، وبذل الأنفس والمهج لله في ميادين القتال ابتلاء لهم في هذه الحياة الدنيا لينظر من يطيعه ويأتمر بأوامره ، ويصدق في محبته ويواليه ، ومن يعصيه ويخالف أوامره ويوالي أعداءه .

وليس هناك دليل أقوى على طاعة الله ومحبته من بذل النفس رخيصة في سبيله .

ولذا فقد وقعت الصفقة بين المؤمنين وبين ربهم حيث اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن يبذلوها في طاعته والجهاد في سبيله ، ومن فعل ذلك فله الجنة كما قال تعالى : " ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم" (١) .

ويقول الامام ابن القيم رحمه الله في بيان الحكمة من الجهاد :

" واذا كان من المعلوم المستقر عند الخلق أن علامة المحبة الصحيحة بذل الروح والمال في مرضاة المحبوب ، فالمحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة الا له ، وكل محبة سوى محبته باطلة أولى بأن يشرع لعباده الجهاد الذي هو غاية ما يتقربون به الى الههم وربهم ، وكانت قرابين من قبلهم من الأمم في ذبائحهم وقرابينهم

---

(١) سورة التوبة آية ١١١

تقديم أنفسهم للذبح فى الله مولاهم الحق (١) فأى حسن يزيد على حسن هذه العبادة ولهذا ادخرها الله لأكمل الأنبياء وأكمل الأمم عقلا وتوحيدا لله ."(٢)

---

(١) وقد خفف الله عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ووضع عنهم ما كان من الأصر الذى كان على من قبلهم اذ كان من قرابينهم أن يقتل الانسان نفسه كما كان من توبتهم من الذنوب أن يقتلوا أنفسهم كما قال تعالى " فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم " سورة البقرة آية ٥٤ .
أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد شرع لهم تقديم الضحايا والقرابين من الأنعام وحرم عليهم قتل أنفسهم .

(٢) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ج ٢ ص٤

الفصـــل الرابـــع

ظاهرة السببية ودلالتها على الحكمـــة

اذا نظرنا الى ما بين أيدينا من السماء والأرض نرى أن المطر ينهمر من سحاب ، والثمر يحصل من الشجر والشجر ينبت من الماء والتراب ، ولم يشاهد الانسان منذ فتح عينيه على الوجود أن حادثا حدث من غير سبب أو أن شيئا وجد من غير موجد ، حتى أضحى هذا المعنى لا يتصور العقل خلافه ولا يطمئن الى غيره .

وظاهرة السببية من براهين وجود الخالق تعالى ، وقديما عبر عن هذا المعنى ذلك العربي بقولته المشهورة (البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج أفلا تدل على اللطيف الخبير) (١) .

واذا تأملنا الشرع نجد أن الله سبحانه جعل مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم والثواب والعقاب والحل والحرمة وغير ذلك مرتبطا بالأسباب قائما عليها .

ونرى ذلك في أنه سبحانه وتعالى جعل العمل الصالح سببا لدخول الجنة وجعل العمل السيء سببا لدخول النار وجعل للكفارات والحدود أسبابا تقتضيها من الوقوع فيما نهى الله عنه . الى غير ذلك من الأمثلة

" الأدلة على ثبوت الأسباب من القرآن الكريم ":

ان القرآن الكريم مملوء من اثبات الأسباب وربطها بمسبباتها ومن ذلك:

---

(١) أنظر كتاب " الله جل جلاله " لسعيد حوى ص ١١٩

أ) ربطه تعالى دخول الجنة بالعمل الصالح كقوله تعالى " ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون " (١) . " وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون" (٢) . "كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون" (٣) . "كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية" (٤) . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون" (٥) .

ب) كما ربط دخول النار وحلول غضب الله بالعمل السىء كقوله تعالى :

" وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون" (٦) . " فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون" (٧) . " فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون" (٨) . " ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين" (٩) .

جـ) وربط سبحانه بين انزال المطر وبين انبات الأرض فجعل الماء سببا لانبات النبات ، قال تعالى :

" ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد" (١٠) .

" وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا"(١١) .

---

(١) سورة النحل آية ٣٢
(٢) سورة الزخرف آية ٧٢
(٣) سورة الطور آية ١٩
(٤) سورة الحاقة آية ٢٤
(٥) سورة الأحقاف آية ١٤
(٦) سورة السجدة آية ١٤
(٧) سورة الأعراف آية ٣٩
(٨) سورة فصلت آية ٧
(٩) سورة المدثر الآيات من ٤٢ — ٤٧
(١٠) سورة ق آية ٩
(١١) سورة النبأ آية ١٤ — ١٦

هذا وقد ذكر الامام ابن القيم رحمه الله أنه لو تتبع مايفيد اثبات الأسباب من القرآن الكريم والسنة النبوية لزاد على عشرة آلاف موضع بدون مبالغة • وذكر بعض المواضع التي تفيد السببية وهي :

١) كل موضع ذكرت فيه الباء تعليلا لما قبلها بما بعدها فان ذلك يفيد أن ما بعدها سبب لما قبلها كقوله تعالى "كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون"(١)

٢) كل موضع رتب فيه الحكم الشرعي أو الجزائي على الوصف أفاد كونه سببا كقوله تعالى : " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله" •(٢) فقد رتب الحكم الذى هو القطع على الوصف الذى هو السرقة •

٣) كل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط للجزاء وهو أكثر من أن يستوعب كقوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا " (٣) • وقوله تعالى " واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد " (٤) •

تأثير الأسباب في مسبباتها ومناقشة منكرى تأثير الأسباب :

هناك من علماء الكلام من ينكر اقتضاء الأسباب لمسبباتها سواء كانت الأسباب كونية أو شرعية • ويجعلون حصول شيء عند وجود شيء آخر لا بطريق أن أحدهما سبب مؤثر ، وانما بطريق جرى العادة وعندهم أن حصول الاحراق عند مماسة النار ، أمر جرت به العادة ، فالله تعالى قد اختار الشيء بأن يكون سببا يوجد

---

(١) سورة الطور آية ١٩
(٢) سورة المائدة آية ٣٨
(٣) سورة الانفال آية ٢٩
(٤) سورة ابراهيم آية ٧

عنده المسبب ، وله تعالى أن لا يصدره عقبه ، وله أن يصدره عقب شيء آخر .

فليس صدور شيء عن شيء لازما ، ولا كونه سببا واجبا وهذا ما ذهب اليه أكثر الأشاعرة . (١)

وحجتهم في ذلك :

أن جميع الأشياء مستندة في وجودها الى الله تعالى ابتداء فلا تأثير لشيء في شيء اذ التأثير لايكون الا له تعالى . وتقرير ذلك :

أنه قد قام الدليل على أن الله تعالى قادر على كل الممكنات . ذلك أن الموجب للقدرة هو ذاته ، ونسبة القدرة الى جميع الممكنات على السواء ، اذ لو اختصت قادريته ببعض الممكنات دون بعض ، افتقر ذاته في كونه قادرا على البعض دون البعض الى مخصص وهو محال ، فالمصحح للمقدورية هو الامكان المشترك بين جميع الممكنات . لأن الشيء مع عدم الامكان منحصر في الوجوب والامتناع وهما يحيلان المقدورية .

ومع القدرة التامة ووجود المصحح تكون جميع الأشياء مستندة اليه في وجودها ابتداء . (٢)

ويقول صاحب المسايرة : " ان قدرته تعالى صالحة للكل ، لا قصور لها عن شيء منه فوجب اضافتها اليه بالخلق " (٣) .

ويقول أبو عبد الله السنوسي في شرح أم البراهين في هذا المقام :

" لا شك أنه لو خرج عن قدرته تعالى ممكن ما لم يكن ذلك الممكن مفتقرا اليه تعالى . بل انما يفتقر لمن أوجده كيف ، وكل ما سواه مفتقر اليه غاية الافتقار .

---

(١) راجع حاشية محمد عبده على العضدية ص ١٧٣ ، ١٧٤

(٢) البيضاوي ، طوالع الأنوار مع شرحه مطالع الأنظار ص ١٧٠

(٣) الكمال بن الهمام ، المسايرة ص ٩٦ مطبوع مع شرحه المسامرة

وبهذا يبطل مذهب القدرية القائلين بتأثير القدرة الحادثة فى الاتصال مباشرة ، أو تولدا ، ويبطل مذهب الفلاسفة القائلين بتأثير الأفلاك ، ويبطل مذهب الطبائعيين القائلين بتأثير الطبائع والأمزجة ، ونحوها ، ككون الطعام يشبع ، والماء يروى وينبت ، ويطهر ، وينظف . والنار تحرق ، والثوب يستر العورة ، ويقى الحر والبرد ونحو ذلك مما لا ينحصر ، الى أن يقول :

" والمؤمن المحقق الايمان من لم يسند لها تأثيرا البتة لا بطبعها ، ولا بقوة وضعت فيها ، وانما يعتقد أن مولانا جل وعلا ، قد أجرى العادة بمحض اختياره أن يخلق الأشياء عندها لا بها " (١) .

والجواب عن ذلك :

١) أن اثبات تأثير الأسباب فى مسبباتها لا يستلزم خروج شئ عن قدرته تعالى . وذلك لأن تأثير السبب فى مسببه ليس بذاته بل بما جعله الله فيه من قوة التأثير .

والله جل وعلا هو خالق كل من السبب والمسبب وقد اقتضت حكمته أن يجعل للأسباب تأثيرا فى المسببات ، وهو يسلبه متى شاء ، وان شاء أقام لتلك الأسباب موانع تمنع تأثيرها مع بقاء قواها ، وان شاء خلى بينها وبين اقتضائها لآثارها .

" فمدخلية السبب فى وجود المسبب ليس لذاته بل خلق الله السبب وجعله بحيث يكون له مدخل فى وجود المسبب ، فكما يخلق الله تعالى بعض الأشياء بلا واسطة يخلق بعضها بواسطة وأسباب " . (٢)

ومن هنا يتضح أن المسبب مفتقر فى وجوده الى الله تعالى ذلك أنه

---

(١) أبو عبد الله السنوسى ، شرح أم البراهين ص ٨٠ ، ٨١

(٢) البيضاوى ، طوالع الأنوار مع شرحه مطالع الأنظار ص ١٩٣

لولا أن الله جعل السبب بحيث يكون له مدخل فى وجود المسبب لما وجد المسبب . فالمسبب لم تنقطع نسبته اليه تعالى بالايجاد .

ولا يترتب على كون بعض الاشياء حاصلة بتأثير الأسباب نقص فى الالوهية اذ مدخلية السبب فى وجود المسبب باختياره تعالى ، فليس سبحانه ملجأ الى ذلك ولا مقهورا عليه .

٢) ان فى انكار تأثير الأسباب انكارا لما جعل الله فى بعض الأشياء من قوى، وفيه فتح ثغرة لأعداء الاسلام ينفذون منها للنيل من عقيدة الاسلام .

وفى هذا يقول الامام ابن القيم رحمه الله . " ثم من أعظم الجناية على الشرائع والنبوات والتوحيد ، ايهام الناس أن التوحيد لا يتم الا بانكار الأسباب فاذا رأى العقلاء أنه لم يمكن اثبات توحيد الرب سبحانه الا بابطال الأسباب ساءت ظنونهم بالتوحيد وبمن جاء به الى أن يقول:

" ولكن ضعفاء العقول اذا سمعوا أن النار لا تحرق والماء لا يغرق ، والخبز لا يشبع ، والسيف لا يقطع ، ولا تأثير لشئ من ذلك البتة ، ولا هو سبب لهذا الاثر ، وليس فيه قوة ، وانما الخالق المختار يشاء حصول كل أثر من هذه الاثار عند ملاقاة كذا لكذا ، قالت هذا هو التوحيد ، وإفراد الرب بالخلق والتأثير . ولم يدر هذا القائل أن هذا اساءة ظن بالتوحيد وتسليط لأعداء الرسل على ماجاءوا به كما تراه عيانا فى كتبهم (١) ينفرون به

---

(١) وخاصة فى العصر الحديث حيث ركز أعداء الاسلام من المستشرقين وأذنابهم على النيل من الاسلام ، ورمى المسلمين بالتواكل ، وعدم الاخذ بالأسباب النافعة ، ويعزون ذلك الى الاسلام نفسه . والاسلام من ذلك براء .

الناس عن الايمان" (١) •

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية في الرد على منكري الأسباب :

" ومن قال : ان قدرة العبد وغيرها من الأسباب التي خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا ، أو أن وجودها كعدمها ، وليس هناك إلا مجرد اقتران عادي ، كاقتران الدليل بالمدلول ، فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم ، ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ، ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ، ولا في النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز •

قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس في إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم " (٢) •

هذا وقد نقل الدكتور محمد سعيد البوطي رأي الغزالي في تأثير الأسباب وملخصه : أن في الأسباب تأثيرا أودعه الله عز وجل فيها ، ويسلبه عنها عند ما يشاء فاذا أراد تعطيل السبب عن سببيته أزال عنه هذه القوة المودعة فيه • (٣)

ورأي الغزالي هذا يتفق مع ما يراه السلف • والله أعلم •

---

(١) ابن القيم ، شفاء العليل ص ٣٩٦

(٢) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ، رسالة الارادة ج ١ ص ٣٧٢

(٣) الدكتور محمد سعيد البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية ص ٢٩١

الحكمة فى ارتباط الأسباب بمسبباتهـا

بعد أن تبين لنا جليا أن هناك ارتباطا بين الأسباب ومسبباتها ينبغى أن نعرف ما هووجه الحكمة فى ذلك فنقول :

أولا : ان الله سبحانه سخر للانسان ما فى السموات وما فى الأرض لمنفعته ، كما قال تعالى : "وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه" (١) .
ولا يتم الانتفاع الا اذا كانت الأشياء مرتبطا بعضها ببعض بقانون السببية ، والا اذا منح الانسان عقلا يهتدى به الى الأسباب التى يتوصل بها الى مراده من المسببات ، الأمر الذى يجعل الانسان يباشر الأسباب وهو مطمئن الى الوصول الى غايته ويكون موقفه حينئذ انما هو كشف سنن الله فى كونه ، فاذا علم مثلا أن هذا الدواء سبب فى شفائه تناوله . واذا علم أن الماء سبب فى انبات الأرض ، استخدم الماء لرىّ زرعه . واذا علم أن النار تنضج الأكل أوقدها لانضاج أكله . ولـو كانت الأمور تسير خبط عشواء لما استقام أمر الحيـاة ولا توصل الناس الى منافع الأشياء ، ولا ظهرت الكشوف والاختراعات التى تعود علينا بالنفع فى حياتنا .

ثانيا : وظاهرة السببية تدلنا على عدل الله فى خلقه ، فليس يستوى من أخـذ بالأسباب فتوصل الى مسبباتها بمن قعد عن مباشرة الأسباب وتواكل . وهذا ظاهر بين الأفراد والأمم .
فالمجدّ الذى يباشر الأسباب يتفوق فى شئون الحياة وليس كذلك الخامل والعاجز . ومن يمشى فى مناكب الأرض سعيا وراء رزقه يجد من الرزق ما لا يجده من قبع فى داره . والأمة التى تكدح وتعمل ، وتعد العدة لمواجهة ظروف الحيـاة

---

(١) سورة الجاثية آية ١٣

تعيش عزيزة الجانب مصونة الكرامة . أما الأمة التي تنام عن الواجب ، وتشتغل بسفاسف الأمور فانها تكون عرضة لتسلط الأمم القوية عليها وقهرها .

وهذا ملموس في وقتنا الحاضر ، حيث طغت أمم الغرب على المسلمين بسبب أخذهم بأسباب القوة والغلبة في شئون الحياة ، في حين تقاعس المسلمون عن ذلك . وكانت النتيجة كما نشاهدها أن المسلمين تهضم حقوقهم وتسلب بلادهم ، وتبتز أموالهم وهم عاجزون عن رد الظلم عن أنفسهم ، وهذا بسبب اهمالهم لتعاليم الاسلام التي منها الأخذ بالأسباب النافعة واعداد القوة كما قال تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " (١) .

ثالثا : والتوصل الى الأمور بأسبابها ليس مقصورا على شئون الحياة الدنيا فقط ؛ بل ان أمور الآخرة كذلك ، فقد جعل الله لدخول الجنة سببا هو العمل الصالح . وجعل الجنة درجات ، فمن زاد عمله الصالح ارتفعت درجته .

وكذلك ، جعل الأعمال السيئة سببا لدخول النار ، وجعل النار دركات على قدر الأعمال السيئة .

ولأجل ذلك فانه اذا اختلف الناس في الجزاء في دار الآخرة ، وتباينت درجاتهم لا يكون لأحد على الله حجة فمن هلك فبسبب ما اكتسب من الأعمال السيئة ، ومن نجا فبسبب أعماله الصالحة . ومن ارتفعت درجة غيره عليه في الجنة ، فبسبب تقصيره في العلم والعمل ، وان شئت فاقرأ قوله تعالى : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (٢) ، وقوله تعالى : " أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات " (٣) .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠
(٢) سورة المجادلة آية ١١
(٣) سورة الجاثية آية ٢١

وقوله تعالى :

" قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (١) .

وقوله تعالى :

" فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهية نار حامية" . (٢)

---

(١) سورة الزمر آية ٩

(٢) سورة القارعة الآيات ٦ — ١١

البـــاب الســـادس

فـى الــرد علــى شبــه لمنكــرى الحكمــة

ويشتمل على فصلين :

الفصـــل الأول : فى الخير والشر وبيان الحكمة فى خلق الشرور.

الفصـل الثانى : فى بيان الحكمة فى خلق ابليس وخلق الالام .

شبـــه لمنكـرى الحكمـــة

تمهيـــــــــد :

يعترض بعض الناس على الحكمة بوجود الشر فى هذه الحياة . ويقولـــون :
اذا كان الله تعالى لا يفعل الا لحكمة ، ولا يضع الشئ الا فى محله ، فلمــاذا
وجدت الشرور بأنواعها من الظلم والكفر والمعاصى والمصائب والآلام ولماذا وجد
ابليس الذى هو أصل كل شـــر . وألم يكن من الأليق بالحكمة خلو عالمنا من الشر؟
فيكون كالعالم العلوى عالم الملائكة الذى لا سبيل لوجود الشر فيه .

وللاجابة عن هذه الشبه سنتكلم عن الخير والشر ما المقصود بهما؟ ومـا
هى الحكمة من خلق الشر ؟ ثم نبين الحكمة من خلق ابليس ، وخلق الآلام والمصائب.

الفصـــــــل الأول

الخيـــر والشـــــر

الخير والشر ضدان ، فيطلق كل منهما على معان تضاد معانى الآخر .
فالخير يطلق على العمل الصالح ، وعلى الرخاء ، والغنى والصحة ، والهـــدى
ونحو ذلك .

والشر يطلق على أضداد هذه الأمور .

وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى : " ونبلوكم بالشـــر
والخير فتنة والينا ترجعون " (١) . " نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ،

---

(١) سورة الانبياء آية ٣٥

والغنى والفقر والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال". (١)

ومن ثم يتبين أن الخير والشر ممتزجان فى هذه الحياة ابتلاء للعباد ليظهر من يشكر ويصبر ، ومن يقنط ويبطر .

وسنوضح فيما يلي أمرين يتعلقان بوجود الشر ، ومن خلال الكلام فى هذين الأمرين تتضح الحكمة من وجود الشرور فى هذه الحياة . والأمران هما :

أولا : الشر لا ينسب الى الله :

ان الله سبحانه لا يفعل إلا الخير وبيده الخير ، أما الشر فانه منزّه عن نسبته اليه ، وذلك لأن الشر ليس فى أفعاله تعالى ، ولا فى خلقه ، بل يدخل فى مفعولاته ومخلوقاته ، والله سبحانه لا يوصف بشىء من مخلوقاته ومفعولاته ، بل انما يوصف بفعله وخلقه . (٢)

وانما كان الشر شرا لانقطاع نسبته اليه تعالى لأن الشر منشؤه من العدم ، لأنه إما أن ينشأ عن الجهل وهو عدم العلم ، أو عن الظلم وهو عدم العدل .

والكفر والمعاصى التى تكون من العبد انما هى بسبب عدم توفيق الله له لعدم صلاحية المحل وقبوله لأسباب الخير .

يقول الامام ابن القيم رحمه الله فى هذا المقام :

---

(١) ابن كثير ، التفسير ج ٣ ص ١٧٨

(٢) يقول الامام ابن القيم رحمه الله " وكل اسم من أسمائه فهو مشتق من صفة من صفاته أو فعل قائم به ، فلو كان يشتق له اسم باعتبار المخلوق المنفصل (فانه) يسمى متكونا ومتحركا وساكنا وطويلا وغير ذلك لأنه خالق هذه الصفات" شفاء العليل ص ٥٦٦

" ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شئ وهو خالق العباد وأعمالهم، والعبد حينمايفعل القبيح المنهى عنه فقد فعل الشر والسوء ، والرب تعالـــى هو الذى جعله فاعلا لذلك .

وهذا الجعل منه تعالى عدل وحكمة وصواب ، فجعله (العبد) فاعـــلا خير وحسن ، والمفعول شر وقبيح ، فهوسبحانه بهذا الجعل قد وضع الشئ موضعه لما له فى ذلك من الحكمة البالغة التى يحمد عليها فهو خير وحكمة ومصلحة وان كان وقوعه من العبد عيبا ونقصا وشـــرا " (١) .

ثم انه قد دلت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة على نفى نسبة الشـــر الى الله تعالى ، وأنه لا ينسب اليه الا الخير .

أ ـ أما القرآن فلنتأمل قوله تعالى :

" قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشـــاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير "(٢) .

ووجه الدلالة من الآية أن الله عز وجل أثنى على نفسه بتفرده بالملـــك ، وتفرده بالتصرف فيه ، وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويؤتى الملـــك من يشاء وينزعه ممن يشاء ثم نسب الخير كله اليه ، ولم ينسب الى نفســـه الشر ، بل جعله داخلا فى عموم قدرته فقال " انك على كل شئ قدير " مـــع أن الكلام تضمن الخير والشر ، لأن ايتاء الملك خير ، ونزعه شر بالنسبـــة لمن نزع منه لا بالنسبة لله ، بل هو من الله خير لأنه لم ينزعه منه الا بمقتضى العدل والحكمة ، وكذلك اعزازه لمن يشاء واذلاله من يشاء ، فان الاذلال شر بالنسبة لمن ينزل به الذل ، أما بالنسبة لله فهو خير لأنـه عـــدل وحكمة .

(١) ابن القيم ، شفاء العليل ص٣٧٩ ، ٣٨٠ (٢) سورة آل عمران آية ٢٦

ولا يجيء في كلام الله تعالى اضافة الشر وحده الى الله بل لا يذكر الا على أحد وجوه ثلاثة :

(١) اما أن يدخل في مفعولاته ومخلوقاته بطريق العموم كقوله تعالى " الله خالق كل شيء " (١) . وقوله " والله على كل شيء قدير " (٢) .

فالشر داخل في مخلوقاته وفي مقدوراته .

(٢) وقد يحذف فاعل الشر كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن " وأنّا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا " (٣) .

(٣) وقد يسند الى محله القائم به كقول ابراهيم عليه السلام " الذى خلقني فهو يهدين . والذى هو يطعمني ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين " (٤) . فلم يسند الخليل عليه السلام الامراض الى الله تعالى ، بل أسند المرض الى نفسه التي هي محل المرض . (٥)

ب ــ أما السنة المطهرة التي هي الوحي الثاني ، فقد نزه فيها النبي صلى الله عليه وسلم ربه عن نسبة الشر اليه كما ثبت في صحيح مسلم في ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على ربه في دعاء الاستفتاح حيث قال :

" لبيك وسعديك والخير في يديك ، والشر ليس اليك تباركت وتعاليت " (٦) .

فقد نزّه النبي صلى الله عليه وسلم ربه عن نسبة الشر اليه وأثبت لربه نسبة الخير اليه وأن الخير بيديه .

---

(١) سورة الزمر آية ٦٢
(٢) سورة البقرة آية ٢٨٤
(٣) سورة الجن آية ١٠
(٤) سورة الشعراء آية ٧٨ــ ٨٠
(٥) ابن تيميه ، مجموعة الرسائل الكبرى ج ١ ص ٣٣٦ ، ٣٣٧
(٦) رواه مسلم في صحيحه كتاب المسافرين ج ١ ص ٥٣٤

والحاصل : أن الله تعالى لا ينسب اليه الشر لانه ان أريد بالشر وضع الشيء في غير موضعه فهو الظلم ومقابل العدل والله منزه عنه ·

وان أريد الأذى اللاحق بالمحل بسبب ذنب ارتكبه فايجاد الله للعقوبة على ذنب لا يعد ذلك شرا بالنسبة له بل ذلك عدل منه تعالى ·

وان أريد به عدم الخير وأسبابه الموصلة اليه · فالعدم ليس فعلا حتى ينسب الى الله ، وليس للعبد على الله أن يوفقه ، فهذا فضله يؤتيه من يشاء ومنع الفضل ليس بظلم ولا شر ·

ثانيا : الشر الموجود انما هو شر نسبي اضافي :

ان الشر المتصور نوعان :

١ — شر محض من كل وجه ·

٢ — شر نسبي من وجه دون وجه ·

فالنوع الأول لا يدخل في الوجود بل هو العدم المحض · أما النوع الثاني فهو الذى يدخل في الوجود ، فالشيء الواحد في وقت واحد قد يكون شرا بالنسبة لشخص ، وخيرا بالنسبة لغيره ، كالمطر مثلا يكون نافعا لبعض الناس ضارا ببعضهم · وقتل انسان قصاصا خير بالنسبة لغيره من الناس اذ فيه حياة لهم ، وان كان شرا بالنسبة للمقتول باعتبار أذاه به ·

والله تعالى لم يخلق فينا قوة يكون ترتب أثرها عليها شرا من حيث وجوده ، الا ترى أن الظلم مثلا يصدر عن قوة في الشخص تطلب الغلبة والقهر وهي القوة الغضبية التي تستحسن اذا استعملت لنصرة الحق ، ولهذا خلقت · فليس في ترتب أثرها عليها شر من حيث وجوده ، وانما الشر الوجودي الحاصل منها شر إضافي بالنسبة الى المظلوم والظالم ، أما بالنسبة الى المظلوم فظاهر

وهوالاذى اللاحق به باتلاف نفسه أو ماله ونحوذلك .

وأما بالنسبة للظالم فليس من حيث الغلبة لذاتها ، وانما من حيث وضع الغلبة والقهر والاستيلاء فى غير موضعها ، والعدول بها عن محلها الى غير محلها . فلو استعمل قوة الغضب فى قهر المؤذى والباغى لكان ذلك خيرا .

ومثل ذلك قوة الاحراق فى النار ، فان كمال النار فى احراقها ، فاذا أحرقت ما ينبغى احراقه فهو خير . وان صادفت مالا ينبغى احراقه ، فأفسدته فهو شر اضافى بالنسبة الى ذلك المحل المعين .

وهكذا حركة اللسان والجوارح كلها فان كمالها فى أداء وظائفها بالكلام ، والنظر ، والأخذ ، والمشى ، وانما الشر ينشأ عن استعمالها فى غير موضعها فظهر بذلك أن دخول الشر فى الأمور الوجودية ، انما هو بالنسبة والاضافة لا أنها من حيث وجودها وذواتها شر . (١)

وقد تبدو بعض الأمور شرا محضا ، فى حين أن لها وجها من الخير والمنفعة . فالمرض يخلف وقاية والألم يربى الصلابة والجلد والتحمل ، ولولا المرض لم تعرف قيمة الصحة وما كان ممكنا أن نعرف الجمال لولا القبح . ولا الوضع الطبيعى لولا الوضع الشاذ .

---

(١) ابن القيم ، شفاء العليل ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤ وتفسير سورة الكافرون والمعوذتين له ص ٣٠ ، ٣١

الفصـــل الثانـــى

فى بيان الحكمة فى خلق ابليس وخلق الآلام والمصائـــــب

أولا: الحكمة فى خلق ابليس:

يقول نفاة الحكمة: ما هى الحكمة فى خلق ابليس وجنوده، وتمكينهم من اضلال الخلق؟ بل وما الحكمة فى انظار ابليس وابقائه الى آخر الدهر؟

والجـــواب:

ان فى خلقهم حكما كثيرة، فلولا وجودهم لتعطلت كثير من الحكم والمصالح التى يحبها الله، وذلك لأن وجود الشىء متوقف على وجود سببه، والموقوف على الشىء لا يحصل بدونه. فمن الحكم فى خلق ابليس:

أولا: أن يكمل الله لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة ابليس وحزبه ومخالفته، واغاظته بالطاعة لله والاستعاذة بالله منه، واللجوء اليه تعالى أن يعيذهم من شره وكيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم تحصل بدونه.

ثانيا: أن ابليس خلق ليكون محكًّا يمتحن به الخلق ليتبين به خبيثهم من طيبهم فانه سبحانه خلق النوع الانسانى من الارض وفيها الطيب والخبيث فلابد أن يظهر فيهم ما كان فى مادتهم، كما فى الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعا: "ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل

والحزن (١) والخبيث والطيب" (٢) .

فماكان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها ، فاقتضت الحكمة الالهية اخراجه وظهوره ، فلابد اذا من سبب يظهر ذلك ، فكان ابليس محكا يميز به الطيب من الخبيث .

ثالثا : ومن الحكم في خلق ابليس أن الله تعالى أظهر كمال قدرته بخلق الأضداد حيث خلق جبريل والملائكة وخلق ابليس والشياطين ، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه ، فانه خالق الأضداد كالضياء والظلام ، والجنة والنار ، والحر والبرد ، والطيب والخبيث ، والضد انما يعرف حسنه بضده ، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل .

رابعا : ومنها ، أن المحبة والانابة والتوكل والصبر والرضاء ونحوها أحب أنواع العبودية الى الله سبحانه وهذه العبودية انما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله وتقديم محبته على كل ماسواه ، فالجهاد ذروة سنام العبودية وأحبها الى الله سبحانه ، فكان خلق ابليس وحزبه سببا لوجود هذه الأمور التي يحبها الله .

خامسا : ومنها أن من أسمائه تعالى الخافض الرافع ، المعز المذل ، الحكم العدل وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها ، فكان خلق ابليس سببا لظهور آثار هذه الأسماء . فلو كان الخلق كلهم مطيعين ومؤمنين لم تظهر آثار هذه الأسماء . (٣)

---

(١) الحزن : الصعب الذى لا يمكن صحبته ولا تلين أخلاقه كالأرض الصعبة الوعرة

(٢) رواه أبو داود كتاب السنة باب القدر ج ٥ ص ٦٧ وأخرجه الترمذى في كتاب التفسير الباب الثالث ج ٥ ص ٢٠٤ وقال (حديث حسن صحيح) .

واذا كان قد أنظر ابليس الى يوم القيامة فليس ذلك اكراما له ، بل اهانة ليزداد اثما ، فتعظم عقوبته وذلك لأنه أبى الانقياد لأمر الله ، واستكبر وأصرّ على معصيته ، وقدح في حكمته تعالى وأبى السجود لآدم عليه السلام كما أمره الله وقال " أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين " (١) .

وأيضا فالله قد جعله محكّا لتمييز الخبيث من الطيب - كما سبق - وما دام الخلق مستمرا الى يوم القيامة فان هذا يقتضى بقاءه ببقاء خلق البشر والله أعلم .

ثانيا : الحكمة في خلق الآلام والمصائب

ومن الأمور التي يحتج بها نفاة الحكمة والتعليل وجود الآلام والمصائب في هذه الحياة . قالوا : اذا كان الله تعالى لا يفعل الا لحكمة ومصلحة فما الحكمة في خلق الآلام والمصائب التي تصيب الناس . وألم يكن من الأوفق للحكمة خلوّ عالمنا من هذه الآلام والمصائب ؟

وللاجابة عن هذه الشبهة :

ينبغي أن يعلم : أنه لا يلزم من أثبت تعليل أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح أن يعلم علة كل فعل وكل أمر ، بل عليه أن يعتقد أن لله في جميع أفعاله حكما جليلة ظهرت لنا أو خفيت فلم يطلع الله تعالى العباد على جميع حكمه بل أعلمهم من حكمه ما شاء وما خفي عليهم أكثر مما علموه ، كما قال تعالى لملائكته لما خفيت عليهم حكمة خلق آدم وظنوا أن الخير في عدم خلقه " اني أعلم ما لا تعلمون " (٢) .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٢

(٢) سورة البقرة آية ٣٠

فيجب على المسلم أن يعتقد أنه لا يخلو فعل من أفعاله ولا أمر من أوامره ولا حكم من أحكامه من حكمة وان خفيت ، لأنه ليس عدم العلم بالشئ دليلا على عدم ذلك الشئ .

ومن ثم يتبين أنه على فرض أننا لم نعرف وجه الحكمة فى خلق الآلام فليس ذلك حجة على بطلان تعليل أفعال الله تعالى بالحكم المقصودة والغايات الحميدة .

ومع هذا فاننا اذا تأملنا وجدنا أن الآلام والمشاق يظهر لنا بعض الحكم فيها ، وذلك لأن هذه الآلام :

أ — اما عدل وحكمة ، لأن ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب ذنوبه كما قال تعالى : " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير"(١) .

وقال تعالى : " ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك " (٢) .

والمراد بالحسنة هنا النعمة ، والمراد بالسيئة المصيبة .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية :

" ما أصابك من حسنة فمن الله " أى من فضل الله ومنّته ، ولطفه ورحمته .

(وما أصابك من سيئة فمن نفسك) أى فمن قبلك ومن عملك أنت . (٣)

فظهر بذلك أنه لا تقع مصيبة على العبد الا بسبب ذنوبه . وهذا عدل وحكمة .

---

(١) سورة الشورى آية ٣٠

(٢) سورة النساء آية ٧٩

(٣) ابن كثير ، التفسير ج ١ ص ٥٣٨

ب ـ واما أن تكون الآلام اصلاحا وتهيئة لخير يحصل بعدها فكثيرا " ما تكون الآلام أسبابا لصحة لولا تلك الآلام لفاتت ، وهذا شأن أكبر أمراض الابدان فهذه الحمى فيها من المنافع للابدان ما لا يعلمه الا الله ، وفيها من اذابة الفضلات ، وانضاج المواد الفجة واخراجها ما لا يصل اليه دواء غيرها .

وكثير من الأمراض اذا عرض لصاحبها الحمّ استبشر بها الطبيب .

وأما انتفاع القلب والروح بالآلام والأمراض فأمر لا يحس به الا من فيه حياة .

فصحة القلوب والأرواح موقوفة على آلام الأبدان ومشاقها ." (١)

جـ ـ واما أن تكون الآلام من لوازم الخير التى ان عطلت ملزوماتها ، فات بتعطيلها خير أعظم من مفسدة تلك الآلام .

فكم فى حر الشمس من ألم . وكم فى نزول الغيث من أذى يلحق بعض الخلق ، ولكن طلوع الشمس ونزول المطر فيهما من المنافع للعباد والخلائق ما لا نسبة للأذى الذى ينتج عنهما الى تلك المنافع .

د ـ واما أن تكون الآلام متولدة عن لذات ونعم يولّدها عنها أمر لازم لتلك اللذات . فأعظم لذّات الدنيا لذة الأكل ، والشرب ، والنكاح والرياسة ومعظم الآلام ناشئة عنها ومتولدة منها . كما أن الكمالات الانسانية لا تنال الا بالآلام والمشاق كالعلم ، والشجاعة ، والزهد ، والحلم ، والاحسان ، والجود كما قال الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم .·. الجود يفقر والإقدام قتّال

---

(١) ابن القيم ، شفاء العليل ص٥٢٤ ، ٥٢٥ وقوله ان صحة الأرواح والقلوب موقوفة على آلام الأبدان فيه نوع من الاطلاق فانه لا تلازم بين صحة القلوب وآلام الأبدان اذ قد يوجد أحدهما فى حين لا يوجد الآخر . والأولى أن يقال ان آلام الأبدان من أسباب صحة القلوب والأرواح .

فاذا كانت الآلام أسبابا للّذات أعظم منها وأدوم كان العقل يقضى باحتمالها .(١)

ثانيا: أن حصول النعمة بعد ألم ومشقة أعظم قدرا عند الانسان من نعمة لم يجد مشقة فى سبيلها ، وشكر العبد ربه على دخول الجنة بعد تكليفه وتوفيقه وصبره على مشاق الطاعة أعظم من الشكر على دخول الجنة بدون تكليف . ذلك أن دخول الجنة بعد التكليف فيه نعمتان نعمة التوفيق ، ونعمة أخرى هى نفس دخول الجنة والفوز بنعيمها بخلاف ما لو دخلها ابتداء .

ثالثا: من المعلوم أن الدنيا دار ابتلاء كما قال تعالى : " الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا " (٢) وقال تعالى : " أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون " (٣) .

فالآلام امتحان لايمان العبد وصبره ، وهى مكفّرة لسيئات اقترفها ، كما فى حديث عائشة رضى الله عنها قالت " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من شىء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه الا كتب الله له بها حسنة أو حطّت بها عنه خطيئة " (٤) .

رابعا: أن فى اصابة الخلق بالآلام دليلا على نقصان المخلوق ، وحاجته وضعفه ، وأن الكمال لله وحده ولو لم يكن فى الآلام من حكمة الا هذا لكفى .

أما ما ينال الحيوانات والأطفال من الآلام فالحق الذى تميل اليه النفس أن ذلك من الأمور التى لا تظهر الحكمة فيها ، ويجب الاعتقاد بأن لله فى ايلامها

---

(١) ابن القيم ، شفاء العليل ص٥٢٤ ، ٥٢٥ بتصرف
(٢) سورة الملك آية ٢
(٣) سورة العنكبوت آية ٢
(٤) صحيح مسلم ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ج ٤ ص١٩٩٢

حكمة قطعا قصرت العقول عن ادراكها وهذا ماقرره صاحب المسايرة بقولـــه:
" وقد لا تدرك (أى الحكمة فى الايلام) كمافى (ايلام) البهائم ونحوها (كالأطفال)
فيحكم بحسنه قطعا ويعتقد فيه قطعا حكمة قصرنا عن دركها " (١) .

---

(١) الكمال بن الهمام ، المسايرة ص١٨٥ مطبوع مع الشرح

خاتمـــــــــــــــة

وبعد أن انتهيت بعون الله من عرض مباحث هذه الرسالة ومسائلها المتعددة فانى أختم ذلك بذكر النتائج التى توصلت اليها من هذه الدراسة وهى :

أولا : الله تعالى حكيم ، وأفعاله تعالى فى غاية الاحكام والاتقان ، فهو يضع الشئ فى موضعه اللائق به وهو سبحانه فاعل بالارادة والاختيار وليس الفعل لازما له بحيث لا يمكنه تركه .

لا ينازع أحد من المسلمين فى ذلك .

ثانيا : أن أفعاله تعالى وأوامره مرتبطة بغايات وعواقب حميدة يفعل لأجلها ، وتعليل أفعاله بالحكم والغايات المحبوبة له تعالى لا يؤدى الى افتقاره الى غيره واستكماله به ، ففعله لغاية اكمال للصنع لا استكمال بالصنع ، والله كمل ففعل ، ولا يقال فعل فكمل والفعل وما يترتب عليه منه ، فهو الغنى عن كل ماسواه أكمل الغنى وأتمه .

ثالثا : أن الفعل ان لم يعد على الفاعل منه شئ فانه لا يفعله الا أنه سبحانه لا يفعل لمنفعة أو دفعا لمضرة وانما يفعل الفعل لكونه محبوبا له أو مفضيا الى مايحبه .

رابعا : اطلاق لفظ " الغرض " على الحكمة والغاية التى يفعل الله لأجلها لم يرد فى الشرع ولم يستعمله أحد من السلف فالأولى عدم تسمية الحكمة غرضا ، لكونه يوهم نقصا فى حق الله تعالى .

خامسا : حكمته صفة له سبحانه وتعالى وليست مخلوقة منفصلة عنه ، بل هو الحكيم الذى له الحكمة كما أنه العليم الذى له العلم والقدير الذى له القدرة .

سادساً: أن من الأفعال ما هو حسن في نفسه ، ومنها ما هو قبيح في نفسه

لا بمعنى أن الحسن والقبح يدخلان في مسميهما ، ولكن بمعنى أن ذات

الفعل تقتضي حسنه أو قبحه ، وتخلف المقتضى لحصول مانع أو فوات شرط

لا يوجب سلب اقتضاء الذات أحدهما عند عدم المانع وقيام الشرط .

فمعنى كون الفعل حسنا لذاته أو لصفة لازمة له أنه منشأ لمصلحة

أو مفسدة .

واقتضاء المصلحة والمفسدة قد يكون موقوفا على قيام شرط وانتفاء مانع .

وهذا لا يخرجه عن كونه حسنا في نفسه أو قبيحا في نفسه بالمعنى الذي

ذكرناه .

سابعاً: الحسن والقبح وان كانا قد يدركان بالعقل لا يقتضيان استحقاق

العبد ثوابا ولا استحقاقه عقابا قبل البعثة .

فالتحقيق أن الثواب فضل منه تعالى ، وسبب العذاب - وان كان

قائما قبل البعثة - ولكن لا يلزم من وجود سبب العذاب حصول العذاب

لأن هذا السبب قد نصب الله له شرطا هو بعثة الرسل كما قال تعالى

" وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " (١) .

فانتفاء التعذيب قبل البعثة هو لانتفاء شرطه لا لانتفاء مقتضيه .

ثامناً: ومع كون الحسن والقبح ثابتين للأفعال في أنفسها والله تعالى لا يفعل

القبيح ، الا أن فعله تعالى لا يقاس بفعل خلقه ، فقد يحسن منه ما لا

يحسن من المخلوق وذلك أنه ليس بين الله وبين خلقه جامع يوجب أن يحسن

منه ما يحسن منهم ، ويقبح منه ما يقبح منهم .

---

(١) سورة الاسراء آية ١٥

واذا فمن الخطأ ايجاب شيء على الله بمقتضى العقل فلا يجب عليه تعالى
الا ما أوجبه على نفسه ،وهو منزه عن دخوله تحت شريعة يضعها العباد
بعقولهم .

تاسعا: ثبوت الحسن والقبح العقليين لا يلزم منه عدم الحاجة الى الرسل ، فالوحي
يأتي مبينا لماخفى ادراكه على العقل من حسن أوقبح ، ومقررا لماأدركه
من ذلك،
ومجيء الرسول بالأمر بما هو مركوز في العقل حسنه والنهي عمايدركالعقل
قبحه من أعظم الأدلة على نبوته وصدق رسالته .
كما أن في ارسال الرسل قطعالحجة من لم يؤمن .

عاشرا: أن أفعال الله كلهاحسنة ، وأنه ليسشيء من أفعاله يصح أن يوصف بأنه
قبيح ،لانزاع في ذلكبين المسلمين .

الحادية عشر: أن اطلاق القول بجواز تكليف الله العباد ما لا يطاق من البدع
المحدثة وأنه لم يقع التكليف بما لا يطاق في الشرع بدليل قوله تعالى :
" لا يكلف الله نفسا الا وسعها " . سورة البقرة آية ٢٨٦
وأماجوازه عقلا فأكثر الأمة على عدم جوازه لأن عدل الله يأبى ذلك .

الثانية عشر: من مظاهرحكمة الله مانشاهده في الكون من اتقان الصنع ووضع كل شيء
في محله وتسخير مافي السموات والأرض للانسان وتعاقب الليل والنهاروالحر
والبرد وانزال المطر بقدر الحاجة كل ذلك يدلنا على أنه تعالى يفعل
لحكم جليلة ويراعي مصالح عباده .

الثالثة عشر: ومن مظاهر حكمة الله ما نلاحظه في الأوامر والأحكام الشرعية اذ لا يأمر
الا بمافيه مصلحة ومنفعة ولا ينهى الا عما فيه مفسدة ومضرة .

الرابعة عشر: ظاهرة السببية فيها دليل على حكمة الله ، والقول بتأثير الأسباب في مسبباتها لا ينافي أن يكون الله خالق كل شيء اذ هو الخالق للسبب والمسبب وهو الذي جعل السبب يؤثر في مسببه ، ويمنعه من التأثير فيه متى شاء .

وانكار تأثير الأسباب يؤدي الى جحد ما أودعه الله في الأشياء من قوى وطبائع .

الخامسة عشر: فعل الله تعالى كله خير ، والشر لا يدخل في فعله ولا ينسب اليه . وكون بعض مفعولاته شرا بالنسبة لبعض الخلق فذلك عدل منه وحكمة ، اذ من الحكمة ألا يترك الخير الغالب اذا صحبه شر قليل مغمور .

السادسة عشر: لم يخلق الله في العباد قوة يكون ترتب أثرها عليها شرا من حيث وجوده ، فالقوة الغضبية مثلا ليست من حيث وجودها شرا وليس في ترتب أثرها عليها شرا من حيث وجوده ، وانما الشر ينشأ من استعمالها في غير موضعها ، كأن تستعمل في ايذاء من لا يستحق الايذاء .

والخير في وجودها وترتب أثرها عليها ووقوع هذا الأثر في موضعه كأن تستعمل في نصرة الحق وردع الظالم والبطش بالمؤذي والضار .

السابعة عشر: لا يلزم من كون الشيء مقدورا لله تعالى أن يصح منه فعله ، فقد يمتنع ما هو مقدور له لمنافاته لحكمته وقد ذكر سبحانه قدرته على ما لا يفعله لحكمة قال تعالى " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا " (١) . فهذا مقدور ممتنع لكمال حكمته .

---

(١) سورة يونس آية ٩٩

الثامنة عشر : لا يلزم من اثبات الحكمة فى أفعال الله أن نعلم الحكمة فى كل فعل اذ قد تخفى الحكمة فى بعض الأفعال ، فيجب التسليم له تعالى والاعتقاد الجازم بأن لله حكمة فى ذلك الفعل قصرت عقولنا عن ادراكها .

وبعد : فهذا مجمل النتائج التى توصلت اليها فى بحثى ، راجيا من الله تعالى أن ينفع به . وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ثبت المراجع

— القرآن الكريم

حرف الألف

— احياء علوم الدين
الامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى
دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت

— الأربعين فى أصول الدين
الامام أبوحامد محمد بن محمد الغزالى
المكتبة التجارية الكبرى بمصر

— الارشاد الى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد
امام الحرمين أبوالمعالى عبد الملك الجوينى تحقيق الدكتور
محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم
نشر مكتبة الخانجى

— الأسماء والصفات
الامام الحافظ أبو بكر احمد بن الحسين بن على البيهقى
بتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثرى
دار احياء التراث العربى بيروت

— الاشارات والتنبيهات
الرئيس أبو على الحسين بن عبد اللهبن سينا
بتعليق الأستاذ سليمان دنيا
دار احياء الكتب العربية القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ

— الاعلام
خير الدين الزركلى
الطبعة الثانية ولم يرد اسم المطبعة

— الاقتصاد في الاعتقاد
أبوحامد محمد بن محمد الغزالي
تقديم الدكتور عادل عوا طبع دار الأمانة بيروت سنة ١٣٨٨ هـ

— اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم
شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية
تحقيق محمد حامد الفقي الطبعة الثانية سنة ١٣٦٩ هـ مطبعة السنة المحمدية

— أقوم ما قيل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل
شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية
ضمن مجموعة الرسائل والمسائل له
توزيع دار البار للنشر والتوزيع بمكة

— الامام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل
محمد السيد الجلنيد
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة سنة ١٣٩٣هـ

حـــرف البـــاء

— بيان تلبيس الجهمية - في تأسيس بدعهم الكلامية
شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية
تصحيح وتكميل وتعليق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم مطبعة الحكومة بمكة المكرمة سنة ١٣٩١ هـ

حـــرف التـــاء

— التعريفات
السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني الحنفي
مطبعة الحلبي سنة ١٣٥٧ هـ

— التفسير القيم

الامام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

جمعه محمد ادريس الندوى وحققه محمد حامد الفقى

لجنة التراث العربى بيروت

— تفسير القرآن العظيم

الحافظ عماد الدين أبوالفداء اسماعيل بن كثير الدمشقى

دار احياء التراث العربى بيروت سنة ١٣٨٨ هـ

— تفسير سور الكافرون والمعوذتين

الامام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، تحقيق وتعليق محمد حامد الفقى . الناشر دار الكتب العلمية بيروت

حـــرف الجيـــم

— الجامع لأحكام القرآن

أبوعبد الله محمد بن احمد الأنصارى القرطبى .

الطبعة الثانية مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٣هـ

حـــرف الحـــاء

— حاشية الامام محمد عبده على شرح جلال الدين الدوانى

الأستاذ الامام محمد عبده مع حاشية عبد الحكيم السيالكوتى

المطبعة الخيرية القاهرة سنة ١٣٢٢هـ

— حجة الله البالغة

الشيخ احمد شاه ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى

تحقيق السيد سابق مطابع الاستقلال بالقاهرة

— الحكمة فى مخلوقات الله عز وجل

أبوحامد محمد بن محمد الغزالى

مطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٥٢هـ

حـــــرف الـــــراء

- رسالة التوحيد
الامام محمد عبده
طبع دار النصر للطباعة القاهرة سنة ١٩٦٩م

- رسائل في العدل والتوحيد
القاضي عبد الجبار بن احمد وآخرون من أئمة المعتزلة
دراسة وتحقيق محمد عمارة طبع مؤسسة دار الهلال سنة ١٩٧١م

- رسالة في تنزيهه تعالى عن الاغراض (مخطوطه)
محمد الدمنهوري مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٦٢
عقائد تيمور

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني
أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي
طبع ادارة الطباعة المنيرية

حـــــرف السيـــــن

- سنن أبي داود
الامام أبوداود سليمان بن الاشعث السجستاني ومعه كتاب معالم
السنن للخطابي تخريج وترقيم عزت الدعاس وعادل السيد
طبع دار الحديث حمص سورية سنة ١٣٩٤هـ

- سنن ابن ماجه
الحافظ أبوعبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه
تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي
طبع دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٧٣هـ

- سنن الترمذي
أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي تحقيق ابراهيم عطوه
عوض مطبعة الحلبي سنة ١٣٨٢هـ

— سنن النسائى
الحافظ أبوعبد الرحمن بن شعيب النسائى
مطبوع مع زهرالربى لجلال الدين السيوطى مطبعة مصطفى
الحلبى سنة ١٣٨٣هـ

حـــرف الشيـــن

— شرح الأصول الخمسة
القاضى عبد الجبار بن احمد
تعليق الامام احمد بن الحسين بن أبـــى هاشم
تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان مطبعة الاستقلال القاهرة
سنة ١٣٨٤ هـ

— شرح أم البراهين
أبوعبد الله محمد بن محمد بن يوسف السنوسى
مطبعة الاستقامة القاهرة سنة ١٣٥٣هـ

— شرح عبد السلام على الجوهرة
عبد السلام بن ابراهيم المالكى اللقانى
تعليق الشيخ محمد يوسف الشيخ ، نشر مكتبة القاهرة لصاحبها
على يوسف سليمان

— شرح مطالع الأنظار على متن طوالع الأنوار
الشرح لأبى الثناء شمس الدين بن محمود بن عبد الرحمـــــن
الأصفهانى ، والمتن للقاضى عبد الله بن عمر البيضاوى
المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣ هـ

— شرح المقاصد
مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازانى سعد الدين
طبعة أولنمشدر استانبول

- شرح العقائد النسفية

مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني سعد الدين

مع حاشية عبد الحكيم السيالكوتي وحاشية احمد بن موسى الخيالي

نشر شركة الصحافة العثمانية

- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل

الامام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه

تحرير الحساني حسن عبد الله مطبعة السنة المحمدية القاهرة

حرف الصاد

- صحيح البخاري

الامام أبوعبد الله محمد بن اسماعيل البخاري مع شرحه فتح الباري

للامام الحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني

ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي

- صحيح مسلم

الامام أبوالحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي دار احياء الكتب العربية

القاهرة

حرف العين

- العقائد العضدية

القاضي عضد الدين عبد الرحمن بن احمد الايجي المتوفى سنة ٧٥٦هـ

بشرح جلال الدين الدواني الصديقي وعليها حاشية الشيخ اسماعيل

الكلنبوي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ وحاشية المرجاني وحاشية الخلخالي

المطبعة العثمانية استانبول سنة ١٣١٦هـ

حـــرف الغيـــن

— غاية المرام فى علم الكلام
سيف الدين على بن محمد بن سالم الآمدى المتوفى سنة ٦٣١
تحقيق حسن محمود عبد اللطيف مطابع الأهرام التجاريـــة
سنة ١٣٩١ هـ

حـــرف الفـــاء

— فقه السنة
السيد سابق
المطبعة النموذجية القاهرة

— فى ظلال القرآن
سيد قطب
الطبعة السادسة ولم يرد اسم المطبعة

— فتاوى ابن تيمية (مجموع)
شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ
جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم مطابع الرياض سنة ١٣٨٢هـ

حـــرف القـــاف

— القاموس المحيط
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيرزآبادى
المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت

— قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن
الشيخ نديم الجسر مفتى طرابلس
الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٩ مطابع المكتب الاسلامى بيروت

حــرف الكــاف

- كبرى اليقينيات الكونية
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ، طبعة ثانية مطبعة
دار الفكر العربــى بيروت

- كتاب التوحيد المسمى الأدلة على الحكمة والتدبير
أملاه الامام جعفر الصادق بن الامام محمد الباقر
صححه وعلق حواشيه محمد عبد الرزاق حمزه الطبعة الثانية
ولم يرد اسم المطبعة

- كتاب التوحيد (مذكرات لطلاب كلية أصول الدين بالأزهر)
الشيخ محمود أبود قيقه
دار الطباعة الحديثة القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ

حــــرف الـــــلام

- لسان العرب
أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى المعروف بابن منظور
طبعة مصورة عن طبعة بولاق الدار المصرية للتأليف والترجمة

- الله جل جلاله
سعيد حوى
طبعة ثالثة سنة ١٣٩٢ ولم يرد اسم المطبعة

- الله يتجلى فى عصر العلم
ألفه نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات
الأرض . ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان
الطبعة الثالثة دار الاتحاد العربى للطباعة

حـــــرف الميـــــم

— مجموعة الرسائل الكبرى
شيخ الاسلام تقى الدين احمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفى
سنة ٧٢٨
مطبـــعة محمد على صبيح

— مجموعة الرسائل والمسائل
شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية
توزيع دار الباز للنشر والتوزيع بمكة

— مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين
الامام محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية
مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٥ هـ

— المسايرة
الكمال بن الهمام مع شرحها المسمى بالمسامرة للكمال ابن
أبى شريف بحاشية الشيخ زين الدين بن قاسم الحنفى
المطبعة الكبرى الاميرية القاهرة سنة ١٣١٧هـ

— مسلّم الثبوت
محب الله بن عبد الشكور مع شرحه فواتح الرحموت
للعلامه عبد العلى محمد بن نظام الدين الانصارى
المطبعة الاميرية سنة ١٣٢٢هـ

— معجم المؤلفين
عمر رضا كحاله
مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٧٨ هـ

— المغنى فى أبواب العدل والتوحيد الأجزاء السادس والحادى عشر والرابع عشر
القاضى عبد الجبار بن احمد الهمدانى
أشرف على تحقيقه الدكتور طه حسين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة

— مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة
الامام محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزيه
دار الكتب العلمية بيروت

— المفردات فى غريب القرآن
الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهانى
أشرف على الطبع الدكتور محمد احمد خلف الله نشر مكتبة الانجلو المصرية

— الملل والنحل
أبوالفتح محمد عبد الكريم بن أبى بكر احمد الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨
تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل طبع دار الاتحاد العربى

— الموافقات فى أصول الشريعة
أبو اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمى الغرناطى الشاطبى
بشرح الشيخ عبد الله دراز مطبعة الشرق الأدنى القاهرة

— المواقف
القاضى عضد الدين بن عبد الرحمن بن احمد الايجى
بشرح السيد الشريف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦
وعليه حاشيتان احداهما لعبد الحكيم السيالكوتى والثانية للمولى حسن جلبى بن محمد شاه الفنارى
عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٥٢ هـ

— مناهل العرفان
الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى
دار احياء التراث العربى بيروت

— منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية
وبهامشه كتاب موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول كلاهما لشيخ الاسلام
احمد بن عبد الحليم بن تيمية
نشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض

حرف النون

— النجاة فى الحكمة المنطقية والطبيعية والالهية
الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن سينا
الطبعة الثانية سنة ١٣٥٧ هـ نشر محى الدين صبرى الكردى

— نظرات فى الاسلام
الدكتور محمد عبد الله دراز تحقيق محمد موفق أبو اليسر البيانونى
مطبعة الاصيل بحلب الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢ هـ

— نظم الفرائد فى الخلاف بين الاشعرية والماتريدية
عبد الرحيم شيخ زاده المطبعة الادبية القاهرة

— نهاية الاقدام فى علم الكلام
عبد الكريم بن أبى بكر احمد الشهرستانى
صححه الفرد جيوم مكتبة المثنى ببغداد

— النهاية فى غريب الحديث والاثر
الامام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى
المعروف بابن الاثير
تحقيق محمود محمد الطناحى دار احياء الكتب العربية